قلبٌ من طين

حقوق النسخ والتأليف © 2020 **منشورات ضمّة – الجزائر.**

جميع الحقوق محفوظة ©. لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون اذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

A Heart Of Clay by «Ilhem Mezioud»
Copyright © 2020 by **Dammah Publishing.**

المؤلف: الهام مزيود / عنوان الكتاب: قلبٌ من طين.
الطبعة الأولى: 2020.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: بوشندوقة عبد الفتاح

ضمّة للنشر والتوزيع
Dammah Publishing & Distribution

ISBN : 978-9931- 801-29-0
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2020

.حي 24 فيفري 1971 سيدي عيسى ولاية المسيلة
Tel : 0783029620 / E-mail : dammah.nashr@gmail.com
w w w . d a m m a h p u b . c o m
Facebook : Dammah Publishing – ضمّة
Twitter/Instagram : dammahpub

إلهام مزيود

قلبٌ من طين

ضمّة للنشر والتوزيع | رواية
Dammah Publishing & Distribution

إهداء:

إلى أبي وأمي، حسين علي وزينب..
دائما وأبدا!
إلى أمين زوجي،
إلى إخوتي،
وابنتي رغد،
وإلى كل التشققات التي جعلت جدران القلب تُزهِر.

تنويه:

لم يسبق لأحدهم أن كتب قصة حقيقية خلت من الخيال،

ولا كتب آخر قصة خيالية خلت من الحقيقة.. لذا، فشخصيات الرواية حقيقية مع بعض الخيال، وخيالية مع كثير من الحقيقة.

هـذه ليسـت ملامحـي، أنـا بـريء يـا إلهـي، بـريء مـن كلّ هـذا الحـزن.

- فرانس كافكا-

مدخل

استيقظتُ بعد صراع دونكيشوتي جرى في كوابيسي لأجد ثيابي ملتصقة بجسدي.لقد أسرفت في التعرق. سحبتُ أطرافي بتثاقل من تحت الغطاء ومددت يديَّ نحو الأعلى، تأملتهما وتفرست فيهما، فلم أجد عليهما أية تقرحات أو أثر للمسامير التي كانت تدق أصابعي. رفعت البطانية عن قدميّ، لا توجد قطرة دم واحدة عليهما، مع أنني ركضت على الشوك حافية طوال الليل.

الغرفة شبه مظلمة، لحسن الحظ فإن اختياري للستائر كان موفقا إلى حد ما، فقد حجبت ضوء الشمس، وثنتها عن التسلل باكرا.

حسنا.. ككل الغرف التي يتقاسمها الأزواج المتحابون، أو لنقل: المنسجمون، يمكنني أن أقول إنَّ حجرتنا تفوح برائحة سنوات من الطمأنينة، حشرجات وتأوهات: قبلة خلف الباب، دمعة تحت البطانية، ضحكة قبالة المرآة، ونشوة غالبا في كل الأرجاء.

قلبي ينبض بشدة، بفزع، مددت يدي لأتحسس جفاف حلقي، لا أدري لماذا نقوم بهذه الحركة عادة. كان حلقي جافا متيبسا كأن كل الماء الذي شربته طوال حياتي سلك مسلكا آخرَ!

إلى جانبي يستلقي زوجي بالوضعية نفسها التي تركته عليها البارحة. فمه مفتوح عن آخره، مستغرق في شخيره. لقد اعتدت شخيره كمن اعتاد سماع سيمفونية تُهدهده لينام، حتى أنني صرت

أجد فيه نوعا من الأمان. قد يكون الأمر مضحكاً لكن هذا الصوت يطمئنني أنه هنا، يتنفس لأستمر أنا.

حين أسأل نفسي: هل ما زلت أحبه؟ أجيب تلقائياً إجابة مستقيمة: «إنه التعود»، أو ربما أجيب إجابة دينية: «المودة والرحمة»!

رغم شجاراتنا الكثيرة التي نعتقد على إثرها بأنها خاتمة لعلاقتنا، فإن شيئا أقوى كان يعيدنا من جديد في كل مرة. إنه التعود- دون شك-

حين يمر أمامي، لا...بل حتى لو قضى اليوم رواحا ومجيئا أمام ناظري فإن شعور الذهول الذي كان ينتابني قديما قد ولى حتى قلبي استطاع السيطرة على نبضاته فلم تعد تحرجني بتسارعها، ولا حتى وجهي صار يحمر خجلا حين أسمع صوته. الحب أعمى وحين نتدارك عمانا ونرتدي نظارات المنطق، يكون الأوان قد أعطى قدميه للريح.

أتأمل تقاسيم وجهه وهو نائم. إنها الطريقة الوحيدة التي تجعلني أراه دون تتبيل، دون تكلف. النوم شقيق الموت، يجعلنا نرى النائمين عراة تماما من جميع بروتوكولات اللباقة والزيف، ولو لبعض الوقت.

سرير صغير جدا يشبه سرير الأقزام ملتصق بسريري، كان دور ثالث أطفالي، آخر العنقود، لينام فيه.

قميـص نومـي يلبسـني بطريقـة عشـوائية. كيفـما اتُّفـق. حديقـة الأزهـار التـي تأوينـي كل حلـم تطبـق الخنـاق جيـدا حـول رقبتـي، أصوات الـورود المقهقهـة العالقـة بـأذني تجعلنـي أنكمـش أكـثر.

إنـه مجـرد حلـم، أحمـد اللـه -وأنـا أعيـد تفحـص أطـرافي- لم يحصـل شيء.. أتنهد..

كانـت كل زهـرة تطـوق جسـدي النحيـل بداخلهـا، ثـم تطبـق عـلى أنفـاسي وتتحـول إلى مطرقـة ومسـامير تُـدق بهـا أصابعـي الواحـد تلـو الآخـر، وحـين تدميهـا عـن آخرهـا، تبصقنـي لتحملنـي الزهـرة التـي تليهـا. تُضمـد جراحـي وتطيبهـا حتـى لا تُبقـي عـلى أي أثـر، ثـم تسـلمني للزهـرة الموالـية التـي تفعـل بي مـا فعلتـه سـابقاتها. وحـين تنتهـي منـي جميـع زهـرات الحديقـة تركلنـي الأخـيرة، فـلا أملـك بـين يـدي مـن حـل سـوى الركـض عـلى أشـواكها التـي تتعـرى منهـا وتقذفهـا في طريقـي. أركـض داخـل متاهـة مرعبـة لا تنتهـي أبـدا.

أتـرك مـكاني لتحضـير الفطـور. ألبـس قميصـا أسـتر بـه ثـوب النـوم العـاري قبـل خروجـي مـن الغرفـة. إنـه مجـرد حلـم! أعيـد وأكـرر، أطمـئن نفـسي وأنـا أسـتقبل الصبـاح في حـين انسـحب الليـل وسـواده إلى حـين.

01

الحمار، نعم الحمار هو الكائن الأكثر قرابة من صفاتنا، أقول هذا تقريبا كل صباح وأنا أستعجل الخطى مع المستعجلين حيث يبدو الرصيف مكتظا دوما في مثل هذا الوقت بالذات.

يوم خريفي آخر، الجو يشي بسماء مختنقة بالغيوم لكنها ولسبب ما تؤجل الإمطار، وكأنها آثرت الانتظار والتريث.

رائحة القهوة المنبعثة من المقاهي والمتسللة من نوافذ مطابخ بعض البيوت تعانق الهواء، صوت محركات السيارات والباصات يعلو وينخفض، شحاذة أقصى اليمين من الرصيف سبقت أغلبنا إلى الدوام كالعادة، تجلس على ورق كرتوني وتسند ظهرها إلى حائط المسجد والذي سيبدو بلا معنى لو حدث ورأيته يوما ما بدونها وكأنهما وُجِدا لأجل أن يسند أحدهما الآخر، أسمال سوداء تغطي كامل جسدها، متمسكة بحجابها تلفه حول أذنيها وتغطي بأحد أطرافه فمها، تسد به على طوفان من الكلمات تاركة مهمة الحديث والتعبير لعينيها الغائرتين، المحدقتين تارة في المارة وتارة أخرى في الوعاء الحديدي أمامها. كل يسعى إلى رزقه ويجتهد في تحصيل قوت يومه حسب إمكانياته.

بداية الأسبوع لا تقل إنهاكا وإرهاقا عن نهايته لأم عاملة مثلي، أكون قد استنزفت جل طاقتي خلال عطلة نهاية الأسبوع، بين أعمال البيت وتدريس الأطفال وتلبية رغبات أصغر الأطفال بمزاجه المتقلب، زوجي.

إنه مستعد لتأمين امرأة تساعدني (يقصد زوجة)، هذا ما يقوله حين يشعر بتعبي، أو تزداد شكواي وتذمري من لامبالاته، هؤلاء الرجال لا أدري كيف يفكرون، عاجزون عن توفير أدنى احتياجات زوجة واحدة ويطالبون بالمزيد. عن نفسي ليس لي مكان بحجم خرم إبرة لتحمل مزحته السمجة، الثقيلة، التي لا يمتلك سواها في الغالب!

نعمل برتابة دون توقف، الإحساس بالشغف -ومع مرور الزمن- أصبح في خبر كان، حتى اللسان يتلكأ عادة في نطق هذه الكلمة كونها نادرة التداول، يحدث هذا وأسوأ منه دون أن يكون لأحد الحق في التذمر، فلا أحد سيرهف السمع لأجلك.

الراتب الشهري، صك العبودية الذي يربطنا بوظائفنا، يجعلنا مجبرين على إعادة الأيام وانتظار المقابل الذي نشحذه كل شهر من مركز البريد، نصرفه على الأغلب خلال يومين لأجل تسديد فواتير الغاز، الكهرباء، الماء، لدى حكومة أغنى بلد بترولي، الجزائر -أقصد-

أطفالك وما سبق ووعدتهم باقتنائه لأجلهم، تحاول جاهدا كرب أسرة أن تنسيهم وعدك ذلك الذي تفوهت به لحظة صفاء روحي، تقوم الليل إن اقتضى الأمر وتدعو الله كي يساعدك على أن يَحذف من ذاكرتهم ما تفوهت به من ترهات تدعى وعودا.

يحاصرك ابنك، ذلك الذي يصغي جيدا لما تقوله معلمته: « من وعد وفى ومن وفى دخل الجنة».

الوظيفة الحكومية والظروف التي نمارس فيها أغلب هذه الوظائف مقبرة ضخمة، داخلها قبور كثيفة تتهافت فيما بينها، من ستكون لها القدرة على قبر أكثر الأشياء جمالية داخلنا، أو تلك التي من المحتمل أن يأتي يوم ونؤمن بجمالها، تمتص داخلنا القوي لتغلفنا بخارجها الهش، بإمكان أي موظف أن يفكر فيها فيقفز إلى مخيلته شاهد لقبر ضخم، كبير وواسع دوّن عليه بخط الثلث كما يكتب عادة على شواهد القبور: « هنا يرقد الشغف»

حدث في إحدى المؤسسات الحكومية التي تكدس الموظفين في مكتب واحد أن جاءت موظفة شابة جديدة تفوح منها رائحة الأمل والتطلع للتغيير والرفض للتراكمات التي جعلت الوضع يؤول إلى ما تراه عيناها، تتطلع بشذر إلى الموظفات الملولات عديمات الابتسامة اللواتي يسبقن كل إجابة عن سؤال أحد المراجعين أو تقديم خدمة مهما بدت بسيطة بالكثير من التأفف، رغم أنهن أحيانا كثيرة ينلن نصيبهن من قِبل مراجع بذيء التعامل والكلمات.

في عديد المرات اشتكت من هذه التصرفات، تذمرت من جو الكسل والخمول الذي يسود المكتب، بداية الأمر صمت الجميع، لكن بعد ذلك فضلت إحداهن وضعها في الصورة، تماما في مركزها، قائلة: « نحن المستقبل الذي ينتظرك»، كانت تلك الموظفة الشابة هي أنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة.

يسحبني صياح الأطفال من خيالي.

- لقد وصلنا، تضيف ماريا ابنتي صاحبة الثماني سنوات بصوت طفولي ينبض بالحياة وهي تجذب يدي التي احتضنتها بيديها الصغيرتين.

تجعلني أنحني لكي تهب خدي قبلة من شفتيها وأنحني مرة أخرى لأخيها كي آخذ قبلة عجولة.

يقف حارس المدرسة التي تبعد نحو مئتيْ متر عن بيتنا عند الباب الأسود المشرع عن آخره، الصورة اليومية لآباء يودعون أبناءهم تتكرر اليوم أيضا مثل جميع الأيام التي مضت.

أودع طفليَّ أنا الأخرى عند بوابة المدرسة الابتدائية، لكن قبل ذلك أوصيهما أن يكونا عاقلين ومجتهدين كما أفعل يوميا، يريد جميع الآباء من الأبناء دائما أن يكونوا متفوقين ..لم أسمع بأحدهم قال لابنه: أريدك مرتاح البال. حتى ولو حاول مثلي أن يكون أكثر اتزانا ستغلبه أنانيته في أنه يريد لابنه أن يكون من بين المتفوقين كي يتفاخر به أمام أقاربه وزملائه في العمل. باستثناء والدي طبعا، فأبي لم يكن يقول شيئا، أما أمي فقد رحلت قبل أن أسمعها تتفوه بكلمة واحدة.

ينطلقان راكضان متخطِّين البوابة، تستدير ابنتي «ماريا» ملوّحةً بيدها، أرسل لها قبلة أثيرية، يركض آدم نحو أصدقائه، لقد أصبحا داخل المدرسة بعد أن كنت قد وضعت في حقيبة كل منهما الثلث

مـن قلبـي وأودعـت الثلـث الأخـير الرضيـع الـذي تركتـه في حفـظ وصـون المربيـة بعـد اللـه.

أمـشي بضعـة أمتـار أخـرى، لأصـل أخـيرا المبنى الضخـم أو هكـذا يخيل للعيـون التـي تـراه مـن سـكان المنطقـة لأننـا أساسـا في ولايتنـا -ميلـة، ميـلاف- لا نملـك أبنيـة ضخمـة بالمعنـى الحـرفي للكلمـة، مقـر عمـلي، المكتبـة العموميـة للمطالعـة.

البـواب لم يمـل منـذ عرفتـه مـن حـل الكلـمات المتقاطعـة، يبـدو أنـه يـأتي للعمـل ليقـوم بهـذه المهمـة فقـط لا غـير، حتـى أننـي لا أحفـظ لـه صـورة سـوى هـذه الصـورة التـي ألفتـه عليهـا، لوغـو خـاص بـه، جريـدة مفتوحـة أمامـه طـول الوقـت عـلى صفحـة الكلـمات المتقاطعـة. حـين سـمع وقـع حـذائي رفـع رأسـه الـذي لـن يجذبـك فيـه سـوى عينـاه الذابلتـان اللتـان يتـدلى منهـما كيسـان مـن الشـحم، عـلى عكـس أغلـب البوابـين لم يكـن يتملـق أحـدا، أشـار بنظـره إلى الورقـة الموضوعـة عـلى المكتـب الخشـبي المربـع الـذي يجلـس خلفـه، وقعـت بجانـب اسـمي دلالـة عـلى أننـي صرت داخـل مقـر عمـلي، حضورنـا يتطلـب كل هـذه البروتكـولات، نوقـع صباحـا فـور وصولنـا، ونوقـع مسـاء ونحـن ننـزع عـن كاهلنـا معطـف العمـل.

أصعـد الـدرج نحـو الطابـق الثـاني، أحيـي موظفـات البطالـة المقنعـة[1] المجتمعـات حـول طاولـة مسـتديرة تمكنهـن مـن مناقشـة أحاديـث الأمـس

1 البطالـة المقنعـة: عقـود مـا قبـل التشـغيل حيـث يتـم بموجهـا توظيـف الشـباب مـن خريجـي الجامعـات والمعاهـد في مؤسسـات عموميـة أو خاصـة لمـدة ثـلاث سـنوات وتتـولى مديريـة التشـغيل دفـع المنحـة شـهريا.

وقبل الأمس وحتى ما جرى خلال العام الماضي، أدخل مكتبي الذي تشاركني فيه موظفة أخرى لا أراها سوى صباحا حين تضع حقيبة يدها وتنزع معطفها إن كنا في فصل الشتاء ووقت الخروج حين تستعيد أغراضها، حيث تكون طوال النهار تتنقل من مكتب إلى مكتب ومن طابق إلى آخر في بحث دائم عن آخر المستجدات، من تزوجت، من سافر، من أحب بالسر، من خانها زوجها الذي وثقت فيه وسلمته مفاتيح قلبها، من يحب من ومن تحدث في ظهر من؟ مراسلة صحفية بالمجان!

الكتب في كل مكان، أرفف كثيرة وعناوين أكثر، لا يكفي عمر الإنسان ولو ضوعف مئات المرات لقراءتها، صنفتها بصفتي مكتبية منذ سنوات، أقوم ببعض التعديلات كل سنة رفقة زملائي إذ نقوم بجردها وإعادة ضبط القائمة، عادة لا شيء يتغير فأغلبها لم تطأها يد بشري، تستأنس بالغبار إذ نادرا ما يزورنا قارئ، غالبا يأتي الكثير من الطلبة هروبا من ضغط البيت لمراجعة الدروس في مكان متسع وهادئ كهذا خاصة طلبة البكالوريا.

قامت الدولة الجزائرية بعد انقشاع ظلام العشرية السوداء وسنوات الدم، بدءا من سنة 2005 م بالشروع في إنجاز عدد لا حصر له من المكتبات عبر التراب الوطني، لكنها نسيت معالجة أكثر الأمراض المستعصية لدى المجتمع، مرض العزوف عن القراءة.

حين كانت الكوادر الحكومية تقوم بالإشراف على تدشين مكتبة عمومية للمطالعة يكون إقبال الناس سخيا لالتقاط الصور، ثم

يختفـون بعـد ذلـك كأن المـكان مسـح مـن الذاكـرة أو كأنهـم فصـوص ملـح ذابـت في بركـة مـاء! هنـاك وقـت لـكل شيء حتـى للتذمـر مـن عـدم وجـود شيء نفعلـه لكننـا نظـل نتحجـج بانعـدام الوقـت للقـراءة.

عـادة وبعـد أن أنهـي مـا ترتـب عـلي مـن عمـل، أتصفـح مواقـع التواصـل لتزجيـة الوقـت أو أفتـح درج مكتبـي حيـث أخبـئ كتابـا بعنـوان سـبق واسـتثارني، أقـرأ ببـطء وكأن الوقـت لا ينتهـي أبـدا، أقـرأ عـادة كي لا يبتلعنـي الملـل في كهـف شـبه مهجـور يطلـق عليـه اصطلاحـا لقـب مكتبـة عموميـة.

أشـعر أننـي مشـتتة الذهـن، مضطربـة المـزاج، عـلى سـطح المكتـب بعـض المعامـلات حملقـت فيهـا طويـلا دون أن أسـتطيع مـدَّ يـدي لمعرفـة فحواهـا أو مـاذا ينقصهـا، أحـاول إعـادة ربـط الخيـوط ونسـج الوقائـع داخـل رأسي، أجاهـد للملمـة القطـع المبعـثرة داخـلي، أتمـشى بـلا هـدف داخـل غرفـة المكتـب التـي لا تزيـد أمتارهـا عـن الأربعـة طـولا والثلاثـة عرضـا، عـلى الحائـط أقـصى اليمـين لوحـة يغلـب عليهـا اللـون الأزرق لسـد «بنـي هـارون» أهـم معلـم لولايـة «ميلـة». بـل أكـبر سـدٍّ مـائي شُـيِّد في «الجزائـر» ككل، تجـاوره لوحـة يدثرهـا اللـون البنـي لعـين البلـد بميلـة القديمـة أقـدم منبـع رومـاني في «الجزائـر» ويقـال في «إفريقيـا» أيضـا، العـين التـي يُشـاع أنهـا في القديـم كانـت مـزارا للعـذراوات اللـواتي بمجـرد أن يرتشـفن ماءهـا العـذب حتـى يُخطـبن ويتزوجـن. بـين الحـين والآخـر تصلنـي أحاديـث وضحـكات عامـلات البطالـة المقنعـة مـن المكاتـب

المجاورة، الملل وحجم الفراغ الضخم يجعلهن يمضغن كل موضوع يصادفنه.

اتجهت صوب النافذة، كانت مطلة على شارع رئيسي، أزحت الستائر واستغرقت في مراقبة الرائحين والغادين، أتسلى بزجهم داخل خيالي وجعلهم أبطال قصصي، هل لدى أحدهم قصة نشترك في تفاصيلها؟

منذ ولدت دربت نفسي على مجابهة الوحدة التي علمتني أن لا أترك نفسي وحيدة، منحتني عالما من الفوضى يعجُّ داخل رأسي، أشخاصا يأتون ويذهبون، يعيشون معي قصصا تجعلني مقتنعة إلى حد بعيد أنها ليست وهمية، أشاكسهم، أحبهم، أمقتهم ثم أخبئهم في جيوب الذاكرة إلى حين.

من خلال تطلعي إلى الشارع أتسلى بالتفاصيل الصغيرة التي تقع عليها عيني، تنهيدة متعبة من أم مثقلة بالتفكير، ضحكة مسروقة يقتنصها عاشق من شفتي محبوبته، بريق فخر في عيني أب ينظر إلى ابنه، نظرة انكسار يلقي بها شيخ مسن على الحياة، تفاصيل في الشارع يراها الكثير صغيرة مقارنة بالمباني الشاهقة والجسور العملاقة وحتى أسماء الشوارع واتجاهات الطرق لكنني أصنع منها قصصا كثيرة، قصصا مثيرة، قصصا تمد أرجلها لتطوق وحدتي في هذا المكان على أمل أن تبتلعها كليا يوما ما.

انتبهت أخيرا إلى أن الخدر سرى في قدمي وأثقلهما، تيقنت أنني أطلت الوقوف حين رن هاتفي النقال، كانت «سماح»، صديقتي وبئر

أسراري. طرحت بعض الأسئلة الروتينية التي يشترك في طرحها أغلب البشر. كنت أجيبها بتململ، قالت بعد صمت:

- توقفي عن جلد نفسك بالشكوك.

- وماذا عساي أفعل؟ سألت بتردد.

- المواجهة، المواجهة هي الحل يا عزيزتي. أجابت بتودّد.

أخبرتها أن الأمر يفوق قدرتي على تصديقه، فكيف بمواجهته.

أغلقت الخط وتركتني أحاول التحاور مع كلمة « المواجهة»

02

طفـلاي في الصالـة منشـغلان بمشـاهدة الرسـوم المتحركـة بعـد يـوم دراسي منهـك، تصلنـي تعليقاتهـما بـين الحـين والآخـر لكـن لا أعـي كنههـا بالضبـط، جمـل متداخلـة بـلا معنـى.

كنـت في المطبـخ وأمامـي عـلى الطاولـة كومـة مـن الخـضروات شرعت في تقشـيرها بطريقـة آليـة رغـم أننـي لم أحسـم أمـري بعـد فيـما يخـص الوجبـة التـي سـأحضرها للعشـاء، لم أنتبـه إلى أننـي تخلصـت مـن الخـضر المقـشرة داخـل كيـس القمامـة إلا حـين فتحـت الصنبـور وبـدأت بفـرك وغسـل القشـور. شـعرت بالامتعـاض وقمـت فـورا بالتخلـص مـن الخـضر وقشـورها داخـل كيـس القمامـة، تناولـت حبـة باراسـيتامول أمـلا في أن تسـاعدني عـلى تجنـب الانفجـار الـذي أحسـه وشـيكا داخـل رأسي، لمـاذا يحـدث كل هـذا معـي؟ أيعقـل أن تكـون مجـرد تخيـلات وأنّنـي أحمّـل الأمـور فـوق مـا تسـتحق؟ رجـوت يـديَّ أن تعـودا للتقشـير مـن جديـد حـين خلصـت إلى أن أعـواد البطاطـا المقليـة هـي الحـل لإرضـاء معـدة الصغيريـن.

اهـدئي، تمالـكي أعصابـك، قلـت لنفـسي حـين صرت بمفـردي بعـد أن أرضعـت الصغـير وخلـد أخـواه إلى النـوم، الأمـر يشـبه وجـودي عـلى خشـبة مـسرح حيـث كل الأعـين مصوبـة نحـوي وعـلي أن أؤدي الـدور على

أكمل وجه، علي أن أتعرى من خوفي ولا ألفت انتباه أحد للكابوس الذي يلبسني. أن أتحاشى ذكره أو تذكره. يجب تصويب كامل تفكيري وتركيزي في أن أبدو طبيعية، طبيعية فحسب، ما أشقاها مهمة! علي مواصلة العيش بنفس الروتين الذي ألفت نفسي وعوّدتني أسرتي عليه، أستيقظ كل صباح، أحضر فطور عائلتي الصغيرة، أجهز حقائب طفليَّ، وأجهز حقيبة الرضيع قبل أن آخذه إلى المربية، أذهب إلى العمل، أوصل الصغيرين في طريقي إلى المدرسة، أجلب معي الرضيع عند نهاية الدوام، ألعب معه قليلا، أحضر العشاء، أراجع دروس الصغيرين قبل أن يخلدا إلى النوم، نتبادل الصمت أنا وزوجي عادة في السهرة وهكذا تمضي أيامنا، أو أيامي بالأحرى.

نظفت المطبخ وجلست في انتظار زوجي. خطر لي أن أتسلل إلى مكتبتي الصغيرة لكنني أبعدت الفكرة عن رأسي، في مثل هذه الظروف لن تعلق كلمة واحدة داخل رأسي، أشعلت جهاز التلفاز غيرت قناتين أو ثلاث، أخبار الحرب والموت التي لم تعد تعني أحدا تعتلي شريط العاجل الأحمر كل ثوان، شعرت بالضجر فضغطت على زر إيقاف التشغيل.

حملتني قدماي صوب المرآة المعلقة على حائط ردهة البيت، وقفت أمامها أخبئ ذعري بيدي الصغيرتين، أنكمش على نفسي في زاوية آمل أنها تحميني من زلزال روحي في انتظار عودة زوجي إلى المنزل.

يقضي وقت فراغه عادة في المقهى، يحتسي كوب قهوة مركزة، يعبئ ملابسه برائحة التبغ والسجائر، يناقش ويحلل آخر الأخبار مع أصدقائه الذين يرتاد معهم المقهى.

الأيام تمضي ضبابية، إنه اليوم الثالث بالتقويم العادي، اليوم المليون بتوقيم هلعي. كيف سأصارحه؟ السؤال يعيد نفسه لثلاث ليال متتالية! بدا الأمر وكأنني أدسُّ طفلا غير شرعي داخل أحشائي، بل كأنني اقترفت معصية وأستجدي الطمأنينة من رجل دين ورع، أنتظره كي يطمئن روحي ويهدهد قلبي ويؤكد لي أن لا ذنب لي فيما آل إليه حالي.

أستحضر شجاعتي، أحاول الوقوف على قدمي بدل الوقوف على قلبي الهش، أتحيَّنه كي يدير مفتاح الباب حتى أرتمي بين كتفيه، وألقي بحملي، خوفي، هواجسي كلها جملة واحدة عليه وأنا أخبئ رأسي داخل حضنه، أريد منه إخباري أن كل شيء سيكون على ما يرام وأن لا شيء يدعو لكل هذا الهلع، أسعى إلى أن يسمعني عبارة بسيطة منه كَـ: «لا تخافي» وستكون كافية لأن تجعل حمَّى خوفي تعتدل.

في لحظات الانكسار تستطيع كلمة واحدة طيبة جبرنا، أتحاشى التفكير في ثقبي، رصيدي نفد من الكلمات والجمل التي لها القدرة على ترقيع شرخ قلبي.

كنت مستلقية على سريري حين سمعت صوت المفتاح يدار داخل قفل الباب، تسارع نبضي لكنني قررت أن أسحب غطاء البطانية على رأسي وأن أكتم هواجسي وأتظاهر بالنوم.

نحـن عـادة لا نسـأم مـن الروتـين بالقـدر الـذي تسـأم منـه الحيـاة، فتقـرر عـلى حـين غـرّة أن تلعـب معنـا لعبـة التغيـير اللئيمـة، تقـرص الهـدوء داخلنـا فتجعلـه يتلـوى مـن الحـيرة، هكـذا وببسـاطة تعمـد إلى إعـادة النظـر فينـا، نحـن أشـياؤها الخاصـة.

قضيـت الليلـة متقلبـة بـين ضياعـي وقلـة حيلتـي، أدرت ظهـري لزوجـي، خمنـت أنـه يصـارع الغمـوض والحـيرة الذيـن أصارعهـما عـلى الأقـل كي يحـاول معرفـة مـا بي، لكنـه مـا لبـث أن أرسـل لي بشـخيره كرسـالة، السـيمفونية التـي يعزفهـا أغلـب الأزواج في أشـد الليـالي حلكـة. لم يلـق بي التفكـير سـوى داخـل المزيـد مـن المتاهـات.

شـق بـكاء صغـيري الهـدوء والصمـت الخانـق، جعلنـي عـلى إثـره أغـادر الفـراش قبـل أن يغمـض لي جفـن، لأكتشـف أني قضيـت الليـل داخـل متاهـة ضخمـة، تمتـم زوجـي، تنهـد، اسـتغفر اللـه، حوقـل ثـم واصـل نومـه. بصفتـي أمًّـا، فأنـا المسـئولة عـن إطعـام الصغـير وتغيـير حفاظاتـه، وتهدئتـه واختـلاق الألعـاب معـه في أي وقـت إن لـزم الأمـر. هـدأ «محمـد» وعـاد إلى النـوم في حـين انسـحبت أنـا بهـدوء مـن الغرفـة تجنبـا للمزيـد مـن الإزعـاج.

مـن نافـذة المطبـخ ألقيـت نظـرة عـلى صمـت الشـارع، بـدت المدينـة كلوحـة سرياليـة، أبنيـة فوضويـة، أعمـدة إنـارة أغلـب مصابيحها مكسـورة، كيـس بلاسـتيكي يرفعـه الهـواء ويعيـده، ثـم مـا لبـث أن انتـصر الضـوء أخـيرا في مصارعتـه الظـلام. وبـان صبـح يـوم جديـد.

جهـزت طاولـة الإفطـار، وقبـل ذلـك أخـذت حمامـا سريعـا دون أن ألقـي نظـرة عـلى المـرآة التـي صرت أتحاشـاها. أعـرف أن شـحوب وجهـي قـد أضفـى اصفـرارا غـير معتـاد عـلى هـذا الصبـاح.

غرفـة الطفلـين وجهتـي مـن أجـل إيقاظهـما، بنظـرة خاطفـة قمـت بمسـح كلي للبيـت الـذي دفعنـا فيـه دم قلبينـا أنـا وزوجـي كي نحصـل عليـه، لا أريـد أن أعيـد تقليـب شريـط الأمـس ومـا قبـل الأمـس في رأسي، يسـحب البكـر الغطـاء عـن رأسـه بمجـرد أن يسـمع صـوتي ووقـع خطـواتي تقـترب مـن بـاب الغرفـة، يترجـاني خمـس دقائـق إضافيـة فقـط بصوتـه الناعـس، أشـفق عليهـما لكـن عليهـما الركـض مـع الحيـاة في الخـارج. قلـت الحيـاة، وتنهـدت.

اصفـرار بـشرتي بـدأ يذيـب القنـاع الـذي أرتـدي، يتوجـس زوجـي أخيرا مـن شرودي ونحـن عـلى طاولـة الإفطـار، يسـألني بعـد أن تمعـن النظـر في تفاصيـل وجهـي، باغتنـي بسـؤاله عـن حـالي، فلـم أجـد سـوى آلام المعـدة درعـا أحتمـي بـه، أليسـت نضـارة وجـمال بـشرة وجـه المـرأة يعـود لمـدى سـلامة معدتهـا؟ لم يصدقنـي، تيقنـت مـن ذلـك حـين طـرح السـؤال الثـاني:

- مـا الأمـر؟ كان قـد توقـف عـن طـلي قطعـة خبـز بـين يديـه بمعجـون المشمش.

- لا شيء، أجبت بتثاقل كأن لساني مربوطٌ إلى الأسفل.

ربمـا خمـن أننـي اكتشـفت إحـدى نزواتـه النـادرة والتـي يعتـبر غبيـا جـدا في إخفائهـا، أو عـلى الأغلـب كنـت دائمـا أذكى مـن أن أسـمح لـه بـأن يضحـك عـلي. فضَّـل الصمـت وعـدم الإلحـاح أكـثر لمعرفـة مـا أخفـي،

استغرقت بدوري في شرودي تاركة إياه يتسكع في متاهة الشك.

- عليك إيصال الطفلين اليوم، قلت بعد صمت، أنا لن أذهب إلى العمل؟

الطفلان منهمكان في الحديث عن أشياء أحسست لأول مرة أنها لا تعنيني، لا تعنيني كيف مشطت صديقة «ماريا» شعرها وكيف أن البنات في صفها يعتبرنها أميرة، لم أنهرهما أو آمرهما بالصمت احتراما للأكل..

عاد وتوقف بعد دقائق عن انشغاله بالمضغ وسألني باهتمام عما حل بي، لكنني لم أجد جوابا مقنعا سوى أنني أحس بالتعب. تفحصني بنظرة غير مصدق، لم يقتنع بجوابي كالعادة.

- لقد أخبرتك أنني أعاني من آلام في معدتي، قلت واستغرقت في عملية المضغ بطريقة آلية.

- أيعقل أن يفعل بي الشك كل هذا ويقلب كياني بهذا الشكل؟

لا ليس مجرد شك، إنه مدخل مريع لسيل من الأسئلة تحوم حولي وتسبح داخلي دون إجابة.

فور خروجهم هرعت لمقابلة المرآة، وقفت أمامها أطالع جسدي، أستجدي عطف عضو واحد منه علَّه يطمئنني، يربت على جزعي، لكنني لم أبتلى سوى بانعكاس خوفي، أحس به في تشجن أوعيتي والسكاكين التي تدق بطني، أشعر بالغثيان، بالهلع، بالخوف. الخوف من الله كان أول درس تعلمته في حياتي، خمنت أن العلامات الحمراء

التـي كان يدوِّنهـا المـلاك الجالـس عـلى كتفـي الأيـسر قـد اكتمـل نصابهـا وآن أوان الحسـاب، لكـن لمـاذا يعاقبنـا اللـه بطريقـة مثـل هـذه؟

أحـاول تمالـك أعصـابي وإقنـاع نفـسي أن كل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام، كـما اعتـدت دائمـا، أن أكـون لنفـسي الكتـف التـي أسـنِدُ عليهـا حِمـلي، أفتـش عـن بقايـا أمـي فـلا أجـد منهـا في ذاكـرتي سـوى صـورة رماديـة، مهترئـة أكـثر تجعيـدا مـن بـشرة جـدتي التـي خبأتهـا لأجـلي، لم أحفـظ غيرهـا داخـل جيـوب ذاكـرتي المثقوبـة، لأننـي لم أملـك يومـا غيرهـا. حاولـت دومـاً أن أرسـم لأجلهـا مشـاهدَ متنوعـة وصـورا غزيـرة داخـل رأسي، ابتغيـت أن أتباهـى بهـا أمـام مخيلتـي، لكـن سرعـان مـا يتبخـر كل شيء بعـد اللحظـات الحقيقيـة التـي أصرُّ فيهـا عـلى أن تكـون إلى جانبـي كجسـد وروح وليـس مجـرد سراب في مخيلتـي، أو طائـر عنقـاء يحلـق بجناحيـه بعيـدا كلـما تـسرب إلى قلبـي الإيمـان بـه.

تسـاءلت دائمـا وأنـا عـلى أرض اللـه المعبـأة بالأمهـات كيف يكـون وقع هـذا الـذي يطلقـون عليـه مصطلـح «حنـان الأم» عـلى القلـب؟ اسـتفسرت كثـيرا عـن طعمـه، عـن مـدى قدرتـه عـلى ترقيـع مـا لا يُرَقَّـع، كلهـا كانـت استفسـارات وأسـئلة تـأتي وتذهـب لكـن السـؤال الأهـم الـذي بقـي ملازمـا لي حـين علمـت أن مـن أماتهـا هـو اللـه كان: لمـاذا أمـي أنـا بالـذات؟

لمـاذا لم يمهلنـي حتـى اللحظـة التـي أعـود فيهـا مـن المدرسـة راكضـة، أفتـح بـاب المنـزل بلهفـة، أناديهـا بفـرح: أمـي! وأضيـف بشـوق: ماما، ميتـة بالجـوع، واش طيبتـي؟

كم تمنيت قول وفعل ذلك ولو مرة واحدة في حياتي، حين كنت أراقب سماح وهي تتصرَّفُ بهذا النَّحو بصفة يومية روتينية، يسيل لعاب أمنياتي التي لن تتحقق، أمنية بسيطة جدا يا الله، متاحة للجميع وليس للأطفال فحسب، متاحة لدرجة أن أحدا لم ينتبه لمدى جسامتها وأثر بهجتها بالنسبة لشخص مثلي يطلق عليه لفظ يتيم، أمنية قد تبدو ساذجة لكنني حُرِمت منها.

في السماء تجلس أمي، هكذا خمنت، تضع كفها على خدها وتتنهد متحسرة وربما تلوم نفسها على أنها استسلمت للموت وغادرت قبل أن تجرب نشوة الأمومة، من المؤكد أنها تقضي وقتها في التساؤل عن أشياء كثيرة مهمة، عن تسريحة شعري التي كنت أختارها قبل ذهابي للمدرسة، عن العلامات التي تقيِّدها معلمتي بقلمها الأحمر على دفتري، عن مقاس حذائي ومتى توقف الرقم عن الزيادة، عما حلَّ بشكل ولون الثياب التي كانت تتمنى رؤيتها على جسدي لو لم يستعجلها الموت ويجعلها ترحل بسرعة، عن وشم الحنة التي كنت أتباهى به مثل جميع الفتيات كل عيد، وعن كلمة ماما وهي تحلق فراشة زاهية الألوان من بين شفتيّ.

هل فكَّرت في اللحظات التي كنت أبكي فيها بحرقة وأخمن أن ما ينقصني هو حنان الأم الذي لا أعرفه؟ من المؤكد أنه خطر على بالها تخيل أول حرف كتبته على اللوحة بالطبشور، وعن الحروف الخمسة من اسمها ج م ي ل ة وأنا أشكلها وأتهجاها كل ليلة حين أكون على الفراش الأرضي الذي يتسع لشخصين ملتحفة ببطانية فقدت شكلها

ولونها، قبل أن تطفئ جدتي النور فأضطر إلى وضع اللوحة والطبشور بجانبي دون أن أمسحها كي أفسح المجال للحروف تنساب برقّة داخل مسامي وأنا نائمة.

تخبئني جدتي، ما تبقى لي من أمي، أمها التي ربتني، داخل حضنها الذي تفوح منه رائحة النعناع، تقرّبني منها أكثر وهي تحيطني بذراعيها وتبدأ بسرد الكثير من القصص عن «لونجة بنت الغول»، عن بقرة اليتامى التي لا تباع ولا تشترى، وعن زوجة الأب التي دفعت زوجها للتخلي عن أولاده.

ترى ما هو شعور زوجة الأب وهي ترى نفسها منبوذة في جميع حكايا الخيال والواقع؟ يحضرني السؤال الآن.

- تقصدين بابا؟ أستفسر منها بأسى.

- والدك لا يحتاج لمن تدفعه للتخلي عنك، وحده قام بالواجب، تجيب بتحسر.

من بين جميع القصص كانت تثيرني قصة الغول الذي كان يقوم بتقطيع أطراف الأطفال ودسها في كيس أسود ضخم يمسكه بيده على أحد كتفيه ويتركه يتدلى على ظهره، ثم وكلما وصل بلدة معينة أخرج قطعة من الكيس وألقى بها هناك، ولا يبقي في كيسه سوى القلب، القلوب، الكثير من القلوب، يحتفظ بالقلوب داخل خزانته حتى تنبض بصدق حينها تستطيع وبنفسها استعادة الجسد الذي تنتمي إليه.

- أتعلمين بمن يفعل هذا؟

- بالأطفال المشاغبين الكسالى الذين لا يساعدون جداتهم ولا يسمعون كلامها، أتلو على مسامعها الإجابة التي لقنتني إياها وصرت أحفظها عن ظهر قلب.

أتطلع يمينا ويسارا أتفحَّصُ الجدران، تحضرني صورة غول جدتي الذي يسعى لتطويقي في محاولة جادة للانقضاض على جسدي وشتيت قطعه، أضع يدي على قلبي الذي يكاد ينفلت من صدري، أرهف السمع لتسارع نبضه، أنأى بكلي عن المرآة التي تقابلني. يقال أن للجدران آذاناً لكنها في هذه اللحظة لا تملك سوى قلبا مشفقا على ارتعادي، وعينين متحسرتين على الوضع الذي صرت إليه.

ارتجَّ هاتفي النقال، وارتجَّ بالمقابل بدني، توقف لنحوِ دقيقة كأنه تواطأ مع وضعي وأمهلني حتى أستجمع قواي الخائرة ثم عاود ارتجاجه، لكن هذه المرة كانت المدة قصيرة جدا، تفحصت الشاشة لأجدها رسالة نصية من صديقتي «سماح»:

« لقد حجزت لك موعدا عند الطبيبة المختصة التي حدثتك عنها، عليك الذهاب اليوم قبل الظهر»

قبل هذه الرسالة كانت قد أرسلت لي ليلة البارحة رسالة نصية قصيرة أخرى تقول فيها:

«عليـك زيـارة الطبيبـة في أقـرب وقـت حتـى ولـو لم تسـنح لـك الفرصـة، حـاولي خلقهـا، كـوني قويـة ليـس هنـاك مـا يدعـو للخـوف أبـدا»

كـوني قويـة.. العبـارة العاجـزة التـي يلقـي بهـا أحدهـم ظنـا منـه أنهـا تخـرج مـن عصـا سـحرية لتكـون معجـزة تعطـي مفعولهـا بصرامة.

03

الساعة تشير إلى تمام العاشرة والنصف صباحا، آلام ظهري بدأت تستنزف صبري، لقد استغرقت في الجلوس على كرسي مرهق نحوَ ساعتين، منذ الثامنة والنصف تقريباً وأنا قابعة هنا، أعدت جوالي إلى حقيبتي وانشغلت بمراقبة توافد المريضات الذي بدأ منذ الثامنة، مكان أنثوي بامتياز، رائحة المرض تطغى على الجو، صالة مكتظة لا تتجاوز مساحتها الأربعة أمتار على خمسة، كراسي متجاورة ومتقابلة، في المنتصف طاولة صغيرة عليها قنينة ماء شبه فارغة وبعض المجلات والكتيبات الطبية باللغة العربية وأخرى بالفرنسية، رغم تطور العلم والأدوية إلا أن كل من يتصفحها سيكتشف أنها لا تزال تتحدث عن أمراض وطرق قديمة لعلاجها.

فور وصولي استفسرت من الممرضة عن عدد المريضات اللواتي سيكون دورهن قبلي، سألتني بدورها عن اسمي ولقبي، بحثت عنه في القائمة التي أمامها وقالت: خمس مريضات ويحين دورك، رجاء تفضلي إلى قاعة الانتظار ريثما تأتي الطبيبة.

بعض الأطباء الخواص لديهم كل الوقت لإذلال المريض، جعله ينتظر منذ ساعات مبكرة، كما توصي الممرضة كل من يتصل ليحجز موعداً، وتعود لتؤكد له وتذكره قبل أن يقفل الخط أن عليه الحضور باكرا.

يتأفف، يتذمر من طول الانتظار ومن نكث الممرضة لوعدها بأنه سيكون في صالة العلاج على الساعة التي حددتها له، ثم يدفع مبالغ خيالية بعد الفحص وينصرف قانعا راضيا.

أغلبهم يتلذذ بتكديس المرضى داخل صالة الانتظار، على كراسي أكل عليها الدهر وهرب، لا تكييف، لا تدفئة، لا تهوية، الانتظار داخل هذه الحجرات يجعل وضع المريض يسوء أكثر، يأتي الطبيب عند حدود العاشرة أو الحادية عشرة، وهنا تبدأ معاناة جديدة.

شبعانين الدراهم، تعلق إحداهن.

أين الطبيبة، ألم تأتِ بعد؟ تستفسر التي وصلت للتو.

متى تأتي في العادة؟ تسأل إحدى المريضات رغم أنها تعرف الجواب مسبقا.

لو كنت في وضع يحتمل التأجيل لأتيت قبل موعد نهاية الدوام بقليل كي لا أضطر للانتظار حتى هذه اللحظة، الظهر. ولا لسماع كلمة من الكلمات التي يتفوهن بها.

شعرت بالمزيد من الملل، دوري لا يريد أن يصل أبدا، حملت نفسي إلى حيث الممرضة لأسألها كم مريضة علي أن أنتظر لتُفحَصَ ويحين دوري؟

قالت متصنعة الاهتمام: ذكريني باسمك.

ذكرتها باسمي ولقبي، وأضفت بأن صديقتي حجزت لي موعدا من المفترض أن يكون قبل الظهر.

قاطعتني: آه حسنا، دعيني أرى، مريضتين ويحين دورك. عودي إلى قاعة الانتظار رجاءً.

في القاعة ليس هناك سوى الملل ونساء ببطون بدأت تتكور، وأخرى لا تزال متوارية، سيظهر التكور قريبا ولا شك أو أنه لن يظهر أبدا.

تجلس قبالتي شابة بدت لي أنها عروس جديدة، وأن الذي تحمله في بطنها هو بكرها، خصلة شعر صفراء تطل من تحت غطاء رأسها، الشعر الأصفر ختم أغلب العرائس، بين الحين والآخر كان يطل شاب لا يتجاوز عمره الثلاثين برأسه من الباب، يبتسم لأجلها ويسألها بهدوء : « هل تريدين شيئا؟».

تجيب بغنج ودلع: لا شكرا.

ماذا عساها تريد أكثر من ابتسامتك واهتمامك؟

تغرس رأسها داخل جوالها، تمسح الشاشة بأصبعها صعودا ونزولا دون ملل.

- أنت حامل؟ سألتني التي تجلس في الزاوية قرب النافذة، لقد استغلت انشغالي بالنظر إلى الوجوه واقتنصت نظرتي إليها لتستوضح أمري، يا لها من مراوغة!

حركت رأسي أن لا بوجه خال من أي تعبير. ولكن رغم ملامح وجهي التي تشي بأنني لا أريد الانخراط في أي حديث إلا أنها أضافت سؤالا ثقيلا مثل طريقتها في نطق مخارج الحروف، كانت تمضغ العلكة

بطريقة انتقامية وتبصق في كأس بلاستيكية صغيرة بين الحين والآخر، فردت راحة يدها على بطنها الذي برز تكوره وسألت من جديد:

- إذن أنت هنا من أجل الحمل، أليس لديك أطفال بعد؟

قبل أن أفتح فمي لأسألها أنا بدوري سؤالا يطمس أسئلتها: ما دخلك؟

نادت الممرضة على اسمي، أخيرا طابور المريضات «الخمس» انتهى، وها قد حان دوري.

كمن يتعلم المشي حديثا، كانت خطواتي تتقدم نحو غرفة الفحص بهدوء وعشوائية، اجتزت رواقا في حدود ثلاثة أمتار، لم يكن هناك أي شخص في آخر الرواق يمدّ ذراعيه نحو الأمام، يهلل، يبتسم ويشجعني كي أتقدم أكثر أو يثني على خطواتي بعد أن استطعت التماسك ولم أقع.

طرقت الباب بوهن، خمنت أنها قالت تفضلي مع أنني لم أسمع أي صوت، أدرت رتاج الباب ودخلت، لم ترفع رأسها عن الورقة التي كانت أمامها تدون عليها شيئا ما بخط يشبه تسارع نبضات القلب. اقتربت أكثر من مكتبها وقمت بتحيتها: صباح الخير.

صباح النور، اجلسي.

جلست على الكرسي الذي يقع على الجهة اليمنى حيث أشارت بيدها، يقابلني كرسي على الجهة اليسرى للمكتب شاغر، لكن لسبب ما أحسست أنه يشجعني كي أتماسك أكثر.

كنت أفكر في إجابة عن السؤال الذي ستطرحه لا محالة، السؤال الذي خلفته ورائي، معلقا في الحيرة التي تسكن عيني زوجي، ولدى الفضولية القابعة في صالة الانتظار، لماذا أنا هنا؟

وضعت القلم من يدها على الورقة وقالت مستفسرة: تفضلي! لماذا أنت هنا؟

قالت تفضلي، هذه المرة سمعتها، نعم سمعت كلمة تفضلي..

لم أكن مرتاحة رغم أن غرفة الفحص مضيئة بشكل مريح، تحتوي على جهاز تكييف، جهاز تدفئة، كرسيين مريحين للجلوس وكرسي ضخم أكثر راحة وبذخا تجلس عليه الطبيبة، الأرضية جد نظيفة يفوح منها رائحة المعطر، تماما عكس صالة الانتظار الخالية من جهاز التكييف والمدفأة إضافة إلى الكراسي التي تقصم ظهر المنتظر.

تجلس الطبيبة بارتياح على كرسيها. يبدو جليا من خلال استقامتها، المكتب الذي تجلس خلفه عليه حاسوب محمول به علامة DELL وبجواره آلة طابعة تلد الكثير من الوصفات يوميا.

على الجدران عدة لوحات وصور توعية، لمح بصري صورة لامرأة حامل ببطن شديد البروز، تبتسم بغبطة وسعادة بأسنان بيضاء حليبية، وتستعد لتناول كأس ماء ممتلئة، كنصيحة للمرأة الحامل كي تكثر من شرب الماء، صورة أخرى لرضيع يلقم ثدي أمه، نظرها مرتكز على حلمتها داخل ثغره، تبتسم له في رقة، فخورة وسعيدة وهو يتغذى منها، تحت الصورة مقولة تشجع على الرضاعة الطبيعية التي تقي من سرطان الثدي.

شـعرت ببعـض الارتيـاح، لقـد أرضعـت ثلاثـة أطفـال. سـيكون هـذا كافيـا لإنقـاذي، تنهـدت، ثـم تنفسـت بعمـق.

شـعور الارتيـاح تبـدد بعـض الـشيء حـين حولـت نظـري إلى الجـزء الثـاني مـن الصالـة حيـث طاولـة الفحـص، وغطـاء أبيـض احتضـن مئـات الأجسـاد قبـلي، بـدت لي بـاردة جـدا، شـعرت بهـا مـن خـلال القشـعريرة التـي اجتاحتنـي مـن أخمـص قدمـي حتـى أعـلى رأسي.

تفضلي، أعادت الطبيبة بصوت أعلى ونبرة آمرة.

أحس بألم هنا، أجبت بحسم، وأشرت لموضع الألم بخجل.

أشارت برأسها إلى طاولة الفحص، فلبيت منصاعة.

متجـردة مـن قطـع الثيـاب التـي كانـت تغطـي جـزئي العلـوي، أشحت بوجهـي عـن عريـي واسـتلقيت مـع هواجـسي وخـوفي عـلى طاولـة الفحـص. كانـت أبـرد مـما جعلتنـي أشـعر بـه قبـل قليـل.

كنـت بحاجـة إلى يـد تمسـك بيـدي برقـة ولطـف، يـد تتطـوع هـذه المـرة خصيصـا لتكـون يـد الأم. الأم التـي تـشرح للطبيـب موطـن الألم بالتحديـد دون أن يتفـوه صغيرهـا بكلمـة، لكـن لم تكـن هنـاك سـوى يـد الطبيبـة التـي قامـت بحركـة دائريـة عـلى الثـدي الـذي أشرت إليـه بخجـل قبـل قليـل، الفحـص الإكلينيـكي هكـذا يطلـق عليـه، حفظـت تسـميته مـن آخـر مقالـة قرأتهـا عـن الموضـوع.

« ارفعـي يديـك، ثـم ضعيهـا عـلى خـصرك، نعـم هكـذا» كانـت تتـصرف بطريقـة آليـة.

ساعدتها حين امتثلت لما طلبته بحذافيره، راحت تدلك برفق وهدوء لكامل العضو، واستمرت في التدليك حتى تحت الإبط، انتقلت بعدها إلى الجهة اليمنى حيث قامت بنفس الخطوات. واصلت الضغط بحركات دائرية، وكانت في كل مرة تستفسر مني: هل تشعرين بالألم؟

رباه لماذا خُلِقت الأسئلة؟ ومن ذا الذي اخترعها؟

لم أكن أملك جوابا، لم أحدد بعد عن أي ألم تتحدث، عما أشعر به بالضبط.

تجمدت أطرافي، اصطكت أسناني، امتلأت عيني بالدموع، وعادت القشعريرة تلبسني من جديد حين زفرت أخيرا وقالت: «هناك كتلة بارزة في الثدي الأيسر، موطن الألم الذي تشعرين به، علينا إجراء بعض الفحوصات وبسرعة سيدتي»

رغم أنها حاولت ولسبب ما أن تبتسم لأجلي لكن الهلع الذي استشفته في عينيها عرَّى كل محاولة طمأنة.

«بسرعة» الكلمة التي سرَّعت نبض قلبي، التي جعلت شريط حياتي يركض أمامي، التي جعلت كل شيء يمر بجانبي ويتجاوزني، الدماء فقدت مسارها داخل شراييني، والوقت يعدو بشكل خرافي وعليّ اللحاق به، لأجل من؟ لأجل أطفالي.

جسمي هذا الكتلة الرخوة، يركلني، يخذلني ويختار التجرد مني. كانت كل انفعالاتي متوارية خلف دهشتي، وسؤال يدوي بشكل مزعج: « أيعقل أن كل شيء أصبح حقيقيا؟»

أردت أن أضغط على يدها بتضرُّعٍ، أن ترى ما تخفي عيني خلف غبش الدموع المنبثق منهما، أن تضيف أي شيء مطمئن، لكنها اختارت وبكل هدوء أن تستطرد: «ارتدِي ثيابك سيدتي، علينا التحدث قليلا». أدارت ظهرها متوجهة نحو مكتبها، في حين التفت أنا لألتقط ثيابي، لبستها كالمخدرة، كيفما اتّفِقَ.

من المبكر أن أعطيك تشخيصا قاطعا لحالتك، ولكن كي نقطع الشك باليقين عليك إجراء تصوير طبي للثدي في أقرب وقت، «إيكوغرافي»، عفوا، تصوير طبي للثديين لو سمحت سيدتي.

تتحدث وتملأ ورقة أمامها بخطها غير المقروء، كيف يتواصل الأطباء فيما بينهم بمثل هذه الخطوط؟ مثلما تتواصل الطيور والفراشات وقطعان النو. سألت وأجبت لمراوغة الخوف داخلي.

استمرت في الحديث، شرحت لي الطريق إلى المكان الذي سأجري فيه التصوير الطبي، كان لطفا منها. كنت أحرك رأسي في كل مرة أنني فهمت، وأرفع عيني إلى اللوحة حيث الأم تبتسم للرضيع الذي يلقم حلمة ثديها، وحيث الرضاعة الطبيعية تقلل من خطر الإصابة بسرطان الثدي.

سلمتني الورقة التي كانت تخط عليها بعدما طوتها ودستها داخل ظرف أبيض، أغلقتها بإحكام وأعادت كتابة عنوان وجهتي على

ظهـر الظـرف. مـددت يـدا خائفـة مرتجفـة لـكي تتـولى اسـتلام الظـرف، شـكرتها واليـد نفسـها كانـت تـدس الظـرف داخـل حقيبـة يـدي.. وهممت بالانـصراف.

قبـل أن أنـصرف كليـا وكمـن يتذكـر شـيئا قالـت: «انتظـري سـيدتي، أخبرتنـي أنـك أم مرضعـة أليـس كذلـك؟»

رفعت رأسي تلقائيا للوحة المعلقة وأجبت ببعض الارتياح: نعم.

حـاولي التوقـف عـن إرضـاع صغـيرك ابتـداءً مـن اليـوم، ريثـما نتأكـد مـن سـلامتك كليـا.

ولـكي تبـدد الهلـع الـذي ترجمتـه نظـرتي إليهـا أضافـت: «لا تخـافي هـذه الأعـراض تصيـب الكثـيرات، انتفـاخ في الصـدر، احمـرار الحلمـة، ظهـور كتـل صغـيرة، وحـالات كثـيرة أسـوأ ولكـن بمجـرد إجـراء التصويـر الإشـعاعي نكتشـف في الغالـب أنهـا مجـرد أكيـاس».

نعـم فهمـت، حـاضر. أجبـت دون أن أرفـع رأسي للوحـة وانصرفـت أجـرُّ خطـواتي جـرّاً.

في الغالـب مهـما بـدا حـدث مـا بـدا بسـيط إلا أنـه يفـضي إلى سـيل مـن الأحـداث المعقـدة والمتشـعبة، مدخـل مـروِّع لمتاهـة عملاقـة.

«محمـد» رضيعـي يـكاد يثقـب أذني ببكائـه الـذي يقطـع نيـاط قلبـي تقطيعا .

أرضعيه، يطلب زوجي.

- ماما، «محمد» جائع، إنه وقت رضاعته. يذكرني «آدم» وكأني لا أعلم.

- ماما، أسكتيه لا أستطيع التركيز مع تماريني، ستوبخني معلمتي غدا، ستنقص لي نقاطا وس... قبل أن تكمل «ماريا» سرد قائمة العقوبات التي تنتظرها قلت: «حسنا، دقائق ويسكت».

غير أن زوجي بدا وكأنه لم يسمع كلمة مما تفوهت بها، واستطرد:

أرضعيه، توقفي عن الذهاب والمجيء به داخل الغرف دون فائدة.

أكاد أنفجر لكنني أفعل ما بوسعي لأستمر في تمالك أعصابي، الطبيبة بعدما رأت التصوير الطبي للثديين، أمرتني وبحزم أن أوقف الرضاعة، لم تطلب مني مثل المرة السابقة أن أحاول، لقد قفزت بي من « المحاولة» إلى «الأمر» ليس هذا فحسب، أخبرتني أنني على موعد مع تحليل آخر، التحليل الذي سيحدد مصيري.

تمعنت وقتها في الإيكوغرافي جيدا وقالت: «اختبار أخير وننتهي سيدتي، كنت أعلم أننا لن ننتهي لكنني امتثلت لطلبها».

قالت وعيناها مرتكزتان على التصوير بالصدى ذاته:»علينا إجراء اختبار la biopsie، وحين استشفت جهلي بالكلمة قالت اختبار الخزعة، هكذا يسمى. لم أفهم الكلمة حين قالتها بالفرنسية ولا حين ترجمتها إلى العربية.

- أرضعيه، عاد زوجي إلى طلبه لكن بنبرة حاسمة هذه المرة.

كنت أحمل «محمدا» بين ذراعي أهدهده في محاولة يائسة مني لإسكاته، أتنقل من غرفة إلى أخرى دون كلل، توقفت حين صرت قبالته وأجبت بحزم:

- لقد قررت فطامه.

- لماذا؟ أ لم تقومي بإرضاع أخويه من قبل حتى اكتمال الحولين؟ ألم تكوني أنت من قال أنها ومهما حدث لن تحرم رضيعها من حليب ثديها كما حرِمت من حليب أمها؟ حاصرني بأسئلته المؤلمة.

أحسست بالدم يتدفق داخل رأسي، وبأعصابي شدّت أكثر من اللازم فانفجرت أخيرا:

- نعم قلت، قلت كل الذي ذكرت ولكنني غيرت رأيي، هذا حليبي وهذا طفلي وأنا حرَّة.

- أنت حرَّة، ردد وانصرف إلى غرفة النوم. صفق الباب خلفه بكل قوته، عادته حين يستشيط غضبا.

عليّ أن أتماسك لمدة خمسة عشرة يوما ريثما يظهر اختبار الخزعة، إلى أن يتم تحليل النسيج الذي سُحب من ثديي الأيسر، عليَّ تمالك أعصابي والحفاظ على هدوئي، أنا مجبرة على أن أبدو مستمتعة بالعطلة المرضية التي رأت الطبيبة أنها ضرورية كي أرتاح من الضغط قليلا، عليَّ البقاء محافظة على شخصية الدور الذي ألعبه، الأمور كلها تحت السيطرة. لن أسمح بأي انفلات.

اليـوم العـاشر مـن أيـام الراحـة الإجباريـة، عطلتـي شـارفت عـلى الانتهـاء، هاتفنـي المديـر بـادئ الأمـر ليحتـج عـلى غيـابي رغـم أنـه مـبرر، تلتـه اتصـالات بعـض زميـلاتي للاطمئنـان عـلى صحتـي أو لتقـصي أخبـاري وسـبب غيـابي.

عـشرة أيـام كنـت فيهـا أغلَـبَ الوقـت أصـارع الأسـئلة التـي لا تملـك أجوبـة، أسـئلة تنهـال عـلي كحبـات الـبرد، تجرحنـي، تدمينـي، دون أن تصـل بي إلى بـر يريحنـي. أسـبوعان كامـلان عـلي أن أنتظـر فيهـما ظهـور نتيجـة الفحـص، أسـبوعان يعنـي سـبعة أيـام وسـبعة أيـام أخـرى، يعنـي أربعـة عـشر يومـا، يعنـي ثلاثمائـة وسـتة وسـتين سـاعة، يعنـي عشريـن ألفا ومائـة وسـتين دقيقـة خـوف. مخيلتـي مـصرة عـلى إمطـاري بالمزيـد مـن الأسـئلة، وقلبـي لا يملـك مطاريـة تحجـب عنـه وجعهـا، الانتظـار يجلـدني بسـياط الخـوف القاسـية. الخـوف مـن المجهـول، الخـوف والمجهـول المعادلـة الأكـثر تعقيـدا، ومـا بينهـما معركـة أكـثر شراسـة.

نهـارا، أعيـد ترتيـب خزانتـي المرتبـة عـدة مـرات، أمسـح الأرضيـة والبـلاط ثـم أعيـد مسـحها بعـد سـاعة عـلى الأكـثر، أعقـم الأواني وأعيـد تعقيمهـا، يعلـو لهـاثي، أعمـل كروبـوت الفـرق الوحيـد بيننـا أننـي ألهـث وأتعـرق في حـين هـو لا، أقـف عنـد النافـذة أراقـب الـلاشيء، أقـرأ مقـالات لا حـصر لهـا دون أن تعلـق بـرأسي نصـف كلمـة، الكثـير مـن النصائـح، اللـوم، الاقتراحـات.. تائهـة أغلـب الوقـت عـما يتفـوه بـه أطفـالي، أجيـب زوجـي بنعـم أو لا وأحيانـا أومـئ بـرأسي لا غـير.

أما ليلا وحين أطمئن إلى أن الجميع قد انتقل إلى مسرح أحلامه، بهدوء وتروّ أسحب المرآة القادرة على عرض جسدي قطعة واحدة من غرفة الطفلين وأهرع إلى الحمام ، أحاول جعل العملية سرية للغاية، إنها المرة العاشرة، ربما العشرون أو المائة التي أقف فيها أمامها خانعة منكسرة.

أتجرد من ملابسي، أرمي القطع بطريقة آلية كأني كنت أفعلها منذ خطيئة آدم وحواء الأولى. على المرآة يقابلني جسد رغم أنه يفترض أنني حفظت تضاريسه إلا أني أكتشفه في كل مرة للمرة الأولى، لوهلة تمنيت لو تسحبه مني المرآة ولا تعيده إلا غضا طريا كما كان، جسد فتاة في العشرين، لكنني اليوم ابنة الأربعين، بطن مترهل، آثار عملية قيصرية، شامات عشوائية مبعثرة لا تختلف كثيرا عن عشوائية وضعي، « خانات الزين» كما تسميها الجدات في حين تقول الأسطورة أن آلهة الجمال حين تغار من أية أنثى تشوهها بالشامات، أبتسم بأسى رافعة شفتي العليا، اليمنى.

أمد يدي المرتجفة بالخوف اتجاه التصلب، أقلد الطبيبة في فحصها الإكلينيكي، أذعر للمرة المائة كما لو أنها المرة الأولى، لا أتأوه، لا أتألم لا أدري إن كان مؤلم فحالة الهيجان النفسي التي تلبسني في كل مرة تنسيني إن كنت أصارع ألمي العضوي أم ألما ما لم أستطع تحديده، أطلي جسدي بالصابون حتى أبدو مثل سمكة مرّغتها ربة بيت في الطحين لا يظهر منها سوى رأسها، أدعكه بطريقة هستيرية،

تـزداد رطوبـة جسـدي ويتصلـب أكـثر ثديـي، في وضـع آخـر كان يفـترض أن نطلـق عليـه مصطلـح نهـد، ليضفـي شـاعرية أكـثر عـلى الحديـث.

لكنـه الثـدي عضـو في جسـم الإنسـان تشـاركه بـه حيوانـات أخـرى يطلـق علينـا جميعـا اسـم الثدييـات، أتحسسـه بانفعـال، أتعـرق رغـم المـاء البـارد والجـو البـارد، أتذكـر الإعلانـات التـي تمـر يوميـا عـلى شاشـة التلفـاز، «الفحـص المبكـر عـن سرطـان الثـدي يحميكـم مـن المـوت»، في أيـة مرحلـة صرت إليهـا؟ لا أدري. في الإعلانـات تبـدو النسـاء سـعيدات وكأنهـن اكتشـفن كنـزا، يبـدو اللـون الـوردي مزهـرا أكـثر مـن المعتـاد وكأنهـا الحيـاة الورديـة التـي ينتظرهـا الجميـع كمـن ينتظـر «جـودو».

مـرض سرطـان الثـدي، هـل الأمـر مخجـل إلى هـذه الدرجـة؟ زادت كميـة التعـرق، اصطكـت أسـناني، كيـف سـأتعامل مـع أولئـك الذيـن يشـيرون إليـه بذلـك المـرض؟ الذيـن يتحاشـون لفـظ المصطلـح وكأنـه يقتلـع اللسـان مـن جـذوره أو عـلى أقـل تقديـر يربطـه بسلاسـلٍ حديديـة نحـو الأسـفل.

أسـارع إلى لملمـة ثيـابي المبعـثرة الملقـاة عـلى الأرضيـة عادة إذا سـمعت خطـوات زوجـي تقـترب مـن بـاب الحـمام، حـين يحـين موعـد التفريـغ حسـب توقيـت مثانتـه، أخبـئ عريـي، خـوفي وارتعـاشي، أخبـئ عينـي المنكسرتـين عندمـا يفتـح البـاب كي لا تتقاطـع بعينيـه الناعسـتين، أهـرع إلى عشـنا، أختبـئ تحـت البطانيـة، أتكـور في وضعيـة الجنـين، أنكمـش أكـثر، أهدهـد خـوفي وأربـت عـلى كتفيـه حتـى لا يسـتعر أكـثر، أنتظـر النـوم كي

يـترأف بحـالي، مـن المؤكـد أن زوجـي لم يلحـظ غيـابي ولـن تشـغله عـودتي، الوجـود الدائـم للأشـياء أمامنـا يجعلهـا مـع الوقـت لا مرئيـة.

معلقـة أنـا بـين السـماء والأرض، بـين الأبيـض والأسـود، بـين مـا كنـت عليـه ومـا سـأكون عليـه، بـين المـوت والحيـاة، بـين جميـع الأشـياء والأماكـن التـي تـأتي في المنتصـف لتزلـزل اتزاننـا. أجهـد نفـسي في وضـع عـدة احتـمالات في رسـم العديـد مـن المنافـذ ثـم لا أتقبـل أيـا منهـا، أريـد العـودة إلى تـرف روتينـي اليومـي، أريـد العيـش في الملـل التشـاجر مـع زوجـي حـين ينـسى رمـي كيـس القمامـة، توبيـخ طفـليَّ حـين يتغافـل أحدهـما عـن غسـل أسـنانه أو غسـل قدميـه قبـل النـوم. صدقاً.. لا أريـد شـيئا سـوى الاسـتمرار في الوظيفـة الحكوميـة والتذمـر مـن تـدنِّي الراتـب إلى أن أمـوت. قلـت أمـوت؟ نعـم أمـوت لكـن ليـس الآن، عندمـا أكـون أكـثر اسـتعدادا، عـلى الأقـل حـين يكـبر أطفـالي ويصبحـون أكـثر قـدرة عـلى تدبـر أمورهـم، «ماريـا» لا تجيـد ربـط حـزام حذائهـا بعـد، «آدم» لا يـزال يـرى الكوابيـس كلـما شـاهد فيلـم رعـب خلسـة دون علمـي، أسـمع صراخـه آخـر الليـل حـين يكـون قـد خـان ثقتـي نهـارا، يطلـب منـي زوجي أن أتركـه وشـأنه كيـف سـيصبح رجـلا إن كان يسـتنجد بأمـه كل مـرة؟ يضيـف دائمـا بلهجـة حـادة بـأن اللـين لـن يصنـع منـه سـوى كائـن رخـو يخـاف مـن ظلـه. قلـب الأم لا يطوقـه أي عـذر حـين يتعلـق الأمـر بحبـل الأمـان الـذي تمـده لطفلهـا، أدثـر نفـسي وأذهـب لأنتشـله مـن مدينـة الرعـب، أسـارع لمحاربـة الغيـلان التـي تريـد أن تفتـك بـه، كأم عـليّ أن أتقمـص دور الشـجاع الخـارق الـذي لـن يسـمح لأي أذى أن يطـال أطفالـه.

يمسك يدي ويتشبث بها بقوة، يعي جيدا أن لا منجد له غيري، «ماما ابقي إلى جانبي»، يطلب مني دون أن يفتح عينيه بالكامل، أخضع لطلبه، ومن ستخضع لطلباته وتلبيها غيري؟

الرضيع من سيهتم بنوع حفاظاته ويختار له التي ستحمي جلده الناعم من التقشر. زوجي كيف أنقض وعدي له بأننا سنشيخ معا، من ستحظى بيديه تمسدان شيب شعرها، من ستضحك للمعة عينيه وهما تتغامزان على الغار المظلم الذي خلفه سقوط أسنانها، لم نكن نريد الكثير، فقط بعض الأحفاد يلهون ويقفزون أمامنا، الكثير من طفولتهم تراوغ شيخوختنا.

أ لم أقل أنني لست مستعدة بعد؟ الأمر يبدو أشبه بالقائمة التي يحملها الأستاذ بين يديه ويختار بالصدفة أحد الطلاب ليجعله عبرة لزملائه المستهترين، يبدأ بسؤاله عن كل صغيرة وكبيرة في مادة لا يفقه فيها شيئا، ثم يسلط عليه عقابه الذي لن يمَّحى من الأذهان. أنا الاسم الذي تم اختياره ليتلقى أسئلة الحياة والموت المبهمة. لست مستعدة، أردد. سيكون الأمر منطقيا أكثر لو حدث ذلك بعد أن تعربد التجاعيد فوق جسدي، حين يصاحب الارتجاف يدي وأنا أقرب فنجان قهوتي من شفتي، عندما تتشبع مني جميع الأشياء، عندما اتخم بدوري منها.

يقال أن الموت لا يحدث سوى لأولئك الذين عاشوا! هل عشت بالقدر الذي يجعلني أسلّم وأقتنع أن الموت مجرد حدث عابر؟

استأنس الطفلان بمرافقة والدهما لهما كل صباح حتى باب المدرسة طوال عطلتي المرضية، إذا استثنينا عطلة نهاية الأسبوع، يودعانني عند الباب بالكثير من القبل والضحكات البريئة في حين يكتفي هو بالنظر إلى حالي، لازال يجهل ما حلَّ بي، أو ربما اعتبرها إحدى موجات الكآبة التي تجتاحني بين الحين والآخر، لا يتجرأ على قول أو فعل أمام الأطفال، بإمكاننا أن نتشاجر أن نلقي على بعضنا وابلا من الاتهامات رغم أننا اتفقنا في الماضي أن تكون مشاكلنا بعيدا عن مرأى الأطفال لكننا وقعنا في الفخ، كأي عائلة بائسة لا تجيد التعاطي مع مشاكلها ومشاحناتها فتقرر نقل ساحة المعركة حيث يكون الجمهور أطفالا مجبرين على حضور الاقتتال وأحيانا كثيرة يتطلب الأمر الزج بهم في هذه المشاحنات كحكام. الرومانسية أصبحت في خبر كان، طحنتها عجلة الأيام بلا أدنى شفقة.

أجزم أن هناك لعنة ما تلاحق هذا المجتمع جعلته يقبر كل ما يمت للحب بصلة، في حين يسقي بسخاء وعناية كل مظاهر الكره.

بعدما أغلقت الباب خلفهم، اتجهت مباشرة إلى غرفة النوم حيث رضيعي، أخرجته من سريره برفق حملته بين ذراعي وجلست على الأرض، مددت قدمي وبكيت بسخاء.

- الله يحبنا كثيرا يا صغيرتي، ويحبك أنت أكثر.

- لماذا؟

- لأنك عصفورة من عصافير جنته.

- كيف عرفتِ؟

- جميع الأطفال في سنك هم أحباب الله، وأنت بلا أدنى شك واحدة من ملائكته.

- لكنني بلا جناحين.

- لديك ملاكان يحرسانك، أحدهما على يمينك، والآخر على كتفك الشمال.

- لكنني لا أحس بثقلهما!

- لكنهما موجودان، خلقهما الله فور ولادتك كي يتوليا مهمة حراستك.

- ولماذا خلق لي اثنين فقط؟

- سبحانه، يخلق ما يشاء ومتى يشاء، هو الخالق المصور.

- ولماذا خلقهما بالأساس؟

- كي يعيناك، يتولى الثاني تسجيل سيئاتك، في حين ينغمس الأول في تدوين حسناتك، مدى صبرك وتحملك، مدى طيبتك وسخائك.

- الصبر، مثل ماذا؟

مثل تحملك وصبرك على فقدان والدتك.

- كان عليه أن لا يحرمني من أمي وكانت جميع الأمور ستسري على ما يرام.

- سبحانه، يأخذ أمانته متى شاء.

- لماذا يكلف نفسه عناء خلق الأشياء وإماتتها؟

إلى هـذا الحـد تكـون جـدتي قـد ضاقـت ذرعـا بأسـئلتي، وتكـون قشـعريرة الخـوف مـن سـماع اللـه لترهـاتي قد سرت في جسـدها، تسـتغفره كثـيرا لي ولهـا، تضيـف دون أن تتوقـف عـن النظـر نحـو السـماء: «يـا رب إنهـا مجـرد مـلاك صغـير، ارحمهـا برحمتـك».

تمسـح وجههـا براحـة كفيهـا، تقربهـما مـن شـفتيها، تقبلهـا، تتنهـد، وتبـدأ في الاسـتغفار مـن جديـد.

أنظـر إلى رضيعـي وأرفـع يـدي إلى السـماء، أحـاول تذكـير اللـه أننـي دفعـت الثمـن باهظـا حـين قـرر في المـاضي اختبـار صـبري وأننـي لا أريـد للاختبـار أن يُعـاد مـع أطفـالي.

أنظـر إلى كتفـي، ثـم إلى كتفـي «محمـد»، أسـتجدي عطـف أحدهـم، ربمـا أحـد الملائكـة، أبحـث عـن حسـنات تشـفع لي، أسـتغفر اللـه بنفـس الـورع الـذي كانـت تسـتغفره بـه جـدتي، دموعـي سـيل بـلا حاجـز، كل الأيـام التـي مضـت كُنـتُ ممتلئـة ، هـذه الصبيحـة شـاء لي اللـه أن أفـرغ عـن آخـري.

إنـه آخـر يـوم مـن رحلـة الانتظـار، لقـد مـرت الكثـير مـن الليـالي المكفهـرة، الخاليـة مـن قبـس أمـان، لم أجـد شـيئا أحتمـي بـه مـن هـلاوسي سـوى العـودة للـه وذكـره، اسـتغفاره وإعـادة اسـتغفاره، دون أن أغفـل عـن تذكـيره في كل مـرة أننـي أم تملـك ثـلاث ملائكـة وعليـه أن يـترأف

بحالهم. أعيد الاستغفار حين أتذكر جدتي وأحس أنني تماديت وأنني لم أتخل بعد عن وقاحتي حين أخاطب خالقي، يجب علي أن أتعلم كيف أكون متضرعة صاغرة عند كل ابتهال.

تتصل بي سماح كل يوم تقريبا، أفر بالهاتف فور اتصالها إلى مكان قصي حيث لا يمكن لأحد أن يلتقط كلمة مما سأقول، تماما مثلما تفعل العاشقات مع اتصالات عشاقهن، وتماما مثلما كنت أفعل حين كان يتصل بي زوجي زمن اللاسلكي حين كنا مخطوبين، كانت جدتي تنصحني: « الخطاب رطاب، انتبهي» لم أكن أسمعها، بل لم أكن أسمع غيره ذلك الوقت، وكأن العالم، كل العالم بما فيه انحصر في ذبذبات صوته. كنت أحبه برومانسية مفرطة، أنتظره بسذاجة، وبنيت لأجله الكثير من الأحلام الصادقة، حتى لو كانت مجرد أحلام إلا أنني كنت أريد لها بكل قوة الصدق أن تتحقق.

«عطاكْ ربي بلاصة في قلبي،

مهما ديري وقليل فيا

أنا عشقتكْ حملتْ عذابي

نبغيكْ بزاف بالسيف عليَّا

أنتِ اللِّي خيركْ القلبْ

وأنتِ الليِّ بكاتْ عليك العينْ..»

يسـمعني مـن الجهـة الأخـرى مـن الهاتـف، كان يخطـر لي حينهـا أن الكاتـب والملحـن والمغنـي ومـوزع الكلـمات وحتـى شريـط الكاسـيت والمذيـاع وسـماعة الهاتـف كلهـم اجتمعـوا ليسـعدوا قلبـي.

- وأنا؟ سألني حين أخبرته بما خطر لي. وأردف ضاحكا.

- أنت كل تلك السعادة، أجبت بكل ثقة.

كان يحـب كثـيرا أغـاني الـراي، ويحـب أكـثر «الشـاب نصرو» و»الشـاب حسـني»، وشى لي ذات مـرة أنـه بـكى كثـيرا حـين اغتالـت يـد الغـدر هـذا الأخـير، حـين تـم إسـكات صـوت الموسـيقى بالرصـاص، قـال وقتهـا أن الأشـياء الجميلـة لا تعيـش طويـلا. أمـي كانـت أكـثر الأشـياء جـمالا، وربمـا أنـا!

الذكريـات الصادقـة مكانهـا بوابـة الذاكـرة، حتـى لـو أتـت بعدهـا ملايـين اللحظـات فلـن تكـون لهـا القـدرة عـلى زحزحتهـا قيـد أنملـة مـن مكانهـا. أمـه تعتقـد أننـي سرقـت منهـا كل مـا تملـك في حـين أرى أننـي حصلـت مـن خلالـه عـلى كل مـا كان ينقصنـي، وحيدهـا، الخيـط الرفيـع الـذي يربطهـا بزوجهـا الـذي اختفـى في تلـك العشريـة السـوداء التـي اختفـى فيهـا الكثـير مـن الآبـاء، فـلا هـو ميـت تطفـئ نـار غيابـه بالوقـوف عنـد قـبره، تمطـره بالأدعيـة وتقـرأ عليـه سـورة الفاتحـة، ولا هـو حـي يحمـي ظهرهـا ويسـقط عنهـا لفظـة «الهجالـة».

أشـفق عليهـا كثـيرا رغـم كميـة المشـاكل المعتـبرة التـي تفتعلهـا ضـدي، لدرجـة أننـي احتضنتهـا في أحـد الأيـام ووهبـت لهـا كتفـي تبـكي عليـه

بحرقـة، حـين جاءتنـي منكـسرة وحكـت لي أنهـا التقـت إحـدى النسـاء في حالـة مزريـة بمظهـر غـير مرتـب بعـد يـوم شـاق مـن العمـل اشـتكت لهـا مـن ضنـك الحـال فوصفـت نفسـها بعـد المـآل الـذي صـارت إليـه «بالهجالـة»

سـألتني يومهـا وهـي تسـحب رأسـها مـن عـلى كتفـي وتتمخـط داخـل منديلها:

من أخبرهم أن الهجالة بجميع تلك المواصفات؟

طلـب منهـا ابنهـا مـرارا أن تنتقـل للعيـش معنـا لكنهـا كانـت ترفـض الفكـرة مـن أصلهـا، كانـت تنتظـر الآتي الـذي لم ولـن يـأتِ، زوجهـا.

كان الهاتـف في أذني وكنـت ألتقـط كلمـة وأهمـل عـشرة مـن مجمـوع الكلـمات التـي تفوهـت بهـا «سـماح»، طـوال الأيـام الماضيـة كانـت تحاول أن تجعلنـي أرقـص عـلى خيـط الأمـل الـذي تصنعـه لي بالكثـير مـن حكايـا المـرضى ذوي التشـخيصات الخاطئـة، وقصـص النسـاء اللـواتي ارتعـدت فرائصهـن رعبـا مـن أثـر الشـك لا غـير، ثـم تعيـد لتحدثنـي عـن الفـرص العاليـة للشـفاء وعـن أنـاس قاومـوا المـرض واسـتطاعوا صرعـه حـين كانـوا أقـوى منـه. ثـم تعـود لتجعـل خيـط الأمـل مجـرد طريـق وهمـي في صحـراء يومياتي القاحلـة.

قبـل أن تقفـل الخـط طلبـت منـي برجـاء أن أطمئنهـا فـور ظهـور نتيجـة الفحـص.

قلت: إن شاء الله وأقفلت الخط.

أعـدت لوجهـي قنـاع « لا شيء يحـدث لي» وانضممـت لعائلتـي المجتمعـة في مثـل هـذا الوقـت في الصالـون مسـتغرقين في مشـاهدة شريـط وثائقـي عـن الحيوانـات، كانـت التعليقـات تعلـو وتنخفـض وكل مـن «ماريـا» و»آدم» يريـد أن يـبرز لوالـده أنـه يملـك أكـبر قـدر مـن المعلومـات. ولسـبب مـا وأنـا أتنقـل بنظـراتي حـول وجوههـم واحـدا تلـو الآخـر قلـت في نفـسي: «إننـي أمتلـك أجمـل عائلـة عـلى الإطـلاق».

04

الأوقات العصيبة تمر ببطء لا يمكن استيعابه، نمت أم لم أنم طوال الليل ليس مهما.

في الصباح أيقظت الجميع بعد أن جهزت طاولة الفطور، بدا لي وأنا أراقب حركاتهم أنهم يمثلون فيلما بالتصوير البطيء، يأكلون ببطء، يجمعون أغراضهم ببطء، ثم يغادرون ببطء أكبر، كنت أتمنى لو اختفوا من أمامي دفعة واحدة مباشرة حين اختفى سواد الليل، تعبت من تمثيل دور « لا شيء يحدث لي» أريد الخلاص، انتظار المجهول أرهقني أكثر من هذا المجهول نفسه.

أخبرت زوجي وهو يهم بالمغادرة بعد الطفلين أنني لن أكون متواجدة حين يعود عند الغداء.

- أين ستكونين؟ سألني بغير اكتراث.

- سأذهب إلى طبيبتي، أجبت بعد تردد وبعدما ابتهلت إلى الله أن لا يحاصرني بأسئلة أخرى، ثم أضفت:

-ألم أخبرك أن لي موعدا معها؟

- لا أذكر، قال بعد قليل من الصمت.

عـلى الغالـب أعتقـد أننـي أشـتكي مـن مـرض نسـائي مـا لذلـك لم يدقـق كثـيرا.

قبـل أن يتـوارى خلـف البـاب الخارجـي كنـت قـد طلبـت منـه أن يطعـم «ماريـا» و»آدم» حـين يعـودان مـن المدرسـة، لأننـي قـد أتأخـر، لا أدري لمـاذا قلـت أننـي سـأتأخر.

جهـزت حقيبـة الرضيـع وأوصلتـه عنـد المربيـة التـي عملـت جاهـدة لتعـرف سـبب تغيبـي عـن العمـل طـوال الأسـبوع المنـصرم، كانـت تتفحصنـي بعينيهـا الغائرتـين، لم تظفـر منـي بكلمـة واحـدة تكـون مـادة دسـمة لنشرتهـا الصباحيـة، كل مـا اسـتطعت أن أختلقـه لأجلهـا هـو أننـي أردت أن أسـتريح قليـلا مـن ضغـط العمـل لكنهـا لم تصدقنـي ولم أكـترث بالمقابـل.

في الردهــة التــي تعتــبر قاعــة انتظــار بالمقابــل كنــت مــن أوائــل الواصلـين، أترقـب اختبـار الخزعـة الـذي سـآخذه مـن هنـا فـورا عنـد طبيبتـي التـي سـتخبرني بمصـيري. لم أطـل تفـرس وجـوه المنتظريـن حتـى أطلـت الممرضـة برأسـها البيضـوي نفسـها التـي سـألتني قبـل قليـل عـن اسـمي ولقبـي وسـبب مجيئـي: «تعـالي سـيدتي».

تبعتهـا حتـى مكتـب صغـير عليـه الكثـير مـن الملفـات المتراكمـة، سـلمتني ملفـي وتمنـت لي السـلامة والشـفاء العاجـل.

كيف هي النتائج يا ترى؟ ماذا ينتظرني!

أجـر جسـدي الهزيـل الـذي بـدا لي أضخـم كتلـة يمكـن للمـرء أن يجرهـا، وبـدا لي الطريـق بـين مخـبر التحاليـل وعيـادة طبيبتـي أطـول طريـق مشـيته في حيـاتي كلهـا.

أحمـل قـدري بـين يـدي، هـل يعقـل أن يحمـل المـرء قـدره بـين يديـه؟ عـلى الأغلـب هـو مكتـوب عـلى الجبـين، « المكتـوب عالجبـين مـا ينحـوه اليديـن» أتذكـر المثـل الشـعبي.

أصـوات الأطفـال، ضحكاتهـم، وحتـى صراخهـم المزعـج كلهـا سـجينة بـين جـدران الفصـول والمـدارس، أطفـال اللاجئـين الماليـين يتسـولون الدينار الـذي نزلـت قيمتـه إلى الحضيـض، لا تعنيهـم المـدارس ولا أجواؤهـا.

صدكـة، صدكـة يـرددون العبـارة دون توقـف والتـي لا يحفظـون غيرهـا عـادة أو هكـذا يبـدو لنـا.

صدكـة، صدكـة.. اقـترب منـي طفـل دون العـاشرة، حـاصرني بنظراتـه وهـو يعيـد ترديـد العبـارة، يحمـل بـين يديـه الصغيرتـين صحنـا حديديـا صغـيرا يجمـع فيـه مـا فـاض مـن دنانـير الخيريـن، قدمـين حافيتـين، شـعر أشـعث مغـبر يعلـو وجهـه الأسـود، ومخـاط أخـضر متيبـس عـلى الجهـة اليمنـى مـن فتحتـي أنفـه.

يطلـق عليهـم الجزائريـون اسـم les africains ربمـا يريـدون تنـاسي أننـا كلنـا أفارقـة أو في محاولـة بائسـة للهـروب مـن الوضـع المـزري الـذي يعيشـونه عـلى هـذه القـارة ككل.

مـددت يـدي إلى الحقيبـة أفتـش عـن قطعـة نقديـة أضعهـا داخـل صحنـه، تجعلـه يختفـي مـن أمامـي.

صدكة، صدكة، يكرر.

« الصدقـة تدفـع البـلا وتزيـد فالعمـر مـدة» مقولـة جدتي تسـتوقفني، كيـف غابـت عـن بـالي، لمـاذا لم أكـن أقـم لهـا وزنـا؟

دفـع البـلاء وزيـادة العمـر، إنـه المطلـوب، أعـدت القطعـة النقديـة التـي اصطدتهـا مـن حقيبتـي الفوضويـة وبحثـت بـدلا عنهـا عـن حافظـة النقـود، أخرجـت ورقـة الخمسـمائة دينـار علهـا تكـون درعـا واقيـا مـن البـلاء، دفعـت بهـا إليـه وأردت أن أطلـب منـه أن يدعـو لي لكننـي شـعرت بالخجـل، الأمـر يبـدو وكأننـي أقايضـه، تجاهلـت مـا يبـدو عليـه الأمـر، اسـتجمعت قـواي وقلـت: «أُدعُ لي بنـي».

لم يفهـم شـيئا، ضحـك بفـرح للورقـة النقديـة، أمسـكها بيـده كشـابة تمسـك بقنينـة عطـر باهظـة الثمـن وسـلم قدميـه الحافيتـين للريـح وهـو ينـادي بأعـلى صوتـه: «صدكـة صدكـة».

لقـد أصبحـت أسـتجدي الدعـاء مـن الشـحاذين والدراويـش والأطفـال والمشردیـن، أريـد أن أسـتغل لـدى كل منهـم الخيـط المتـين الـذي يقـال أنـه يربطهـم باللـه.

البارحـة مثـلا جلسـت أقلـب بـين القنـوات التلفزيونيـة، توقفـت للحظـات عنـد قنـاة يشـغلها شـخص ذو لحيـة بيضـاء، ثـوب أبيـض، ويغطـي رأسـه بطاقيـة بيضـاء أيضـا، عـلى جبهتـه بـين حاجبيـه بالضبـط

تستقر بقعة سوداء يشاع أنها علامة التقوى من أثر كثرة السجود لله، حتى لو لم يكن الشخص مصليا بالأساس فتلك العلامة تفي بالغرض! كان الشيخ قد أنهى مكالمة للتو وهو في استقبال مكالمة جديدة، طغى على الجو صوت أنثوي رخيم، قالت صاحبة الصوت أنها تتابع الشيخ وتحبه كثيرا، ابتسم في وداعة، أضافت بعد أن طلب منها أن تتفضل بطلبها، تحول الصوت الرخيم إلى صوت باكٍ وهي تترجاه أن يدعو لها الله كي يصلح لها حالها ويفرج كربها، انخرطت في سرد أحداثها وشرحها. ما مدى الصلة التي تربط هؤلاء الدعاة بالله؟ تساءلت.

لماذا هم من يتولون الإمساك بمربط الحبل الذي تسير عليه الأماني والرغبات؟ هل الابتهالات والأدعية التي تكون عن طريقهم تصل إلى الوجهة المطلوبة دون أن تحيد عن الطريق؟

أمسكت بهاتفي النقال، خمنت تشكيل الرقم الذي يظهر أسفل الشاشة والذي يذكر به الشيخ بين كل مكالمة وأخرى، لكنني تراجعت، كانت «ماريا» منهمكة في تلوين إحدى الأميرات سبق وخطتها على دفتر الرسم الخاص بها.

حبيبتي «ماريا»، قاطعت انشغالها، قولي «يا إلهي احفظ لنا ماما!»

رفعت رأسها من دفترها وبدت أكثر اهتماما بطلبي، وضعت القلم الملون الزهري من يدها، دفعت الطاولة التي كانت تجلس خلفها بهدوء، وسارت نحوي، فتحت ذراعيها حتى خلت أنها تريد

احتضـان العـالم، اقتربـت منـي وكوَّرتنـي داخـل حضنهـا، قبلـت رأسي وقالـت بصـدق: «يـا ربي احفـظ لنـا ماما». أحسسـت أن اللـه لـن يـرد دعـاء خـرج مـن فيـه طفلـة كماريـا. الغريـق يـصرُّ عـلى التعلـق بقشـة حتـى وإن لم يجدهـا نسـجها مـن خيـوط خيالـه.

«آدم» حبيبـي، حـين تلمـح نـزول المطـر لا تنـسى أن ترفـع يديـك للسـماء وتقـول «يـا رب كـن مـع أمـي»

عـلى نفـس الكـرسي الـذي جلسـت عليـه منـذ خمسـة عـشر يومـا، أجلـس الآن، الاختبـار البسـيط لم يعـد بسـيطا، هـذا مـا صرت أعيـه. نفـس ديكـور الغرفـة، كل الـذي تغـير أن الغرفـة بمـا فيهـا ينتظـرون معـي مـا سـتؤول إليـه حـالي كلهـا دون اسـتثناء، رائحـة االأدويـة، طـلاء غرفـة الفحـص، الكرسـيين المريحـين، شـقوق وتصدعـات الجـدران، صـورة المـرأة المبتسـمة وطفلهـا الـذي لا يـزال يلقـم حلمـة صدرهـا، مكتـب الطبيبـة ومـا عليـه وحتـى قلمهـا الأزرق الـذي تلاعبـه بـين أصابعهـا الناعمـة.

كانـت تقـرأ النتائـج باهتـمام واضـح وتتطلـع بـين الحـين والآخـر إلى ملامحـي، إلى أصابعـي تحديـدا وأنـا أعصرهـا بالتنـاوب. عرفـت أننـي لا أملـك مسـاحة بحجـم خـرم الإبـرة لتحمـل أي ضغـط أو انتظـار، اسـتمرت في تقليـب الأوراق بـين يديهـا، نزعـت نظارتهـا الشـفافة، إرث الأطبـاء، فركـت عينيهـا العسـليتين بسـبابة وإبهـام يدهـا اليمنـى، نظـرت في

عيني أخيرا، سحبت نفسا عميقا وقالت بأسف:

vous avez une tumeur maligne

un cancer du sein

لم تتخل عن لباقتها حين خاطبتني بِـ: vous بدل tu ، ولم تتخل عن تملقها حين تحدثت إلي بلغة «موليير» كما يسمونها بدل لغة العرب أو حتى الدارجة، يصر أغلب الأطباء على التواصل مع مرضاهم البسطاء بكلمات وجمل فرنسية مبهمة، يخجل المريض على إثرها من طلب الترجمة أو التوضيح، ويترفع الطبيب عن تقديم أي شرح، ليبقى الجسر الذي يربطهما ضبابيا مبهما.

كانت ترغي وتزبد، الأصوات تتداخل في رأسي، لم يغم علي، لم أصرخ، كنت هادئة جدا، أنتظر أن أستوعب هذه اللحظة بالذات، اللحظة التي رسمت لها خلال الأسبوعين الفارطين ألف لوحة، ألف سيناريو، وصفر مخرج.

- عليك إجراء فحوصات سأسجلها لك، فحوصات لأعضاء أخرى من الجسد كي نتأكد أن المرض لا يختبئ في مكان آخر، بإمكانك استكمال علاجك في المؤسسة الاستشفائية، الحمد لله ولحسن الحظ أن أصبح لدينا داخل ولايتنا فرع خاص بعلم الأورام، يا لها من معلومة قيمة علينا أن نحمد الله لأجلها!

قالت بخجل وكأنها هي السبب في ما أنا عليه: « تعلمين أن الخطوة الموالية بعد الفحوصات هي العملية؟»

- العملية؟ استفسرت مهتاجة وكأنني لم أسمع يوما بهذه الكلمة.

- يجب استئصال الورم، استئصال الثدي على الأغلب لأن الورم يفوق 3 سم. أجابت إجابة مضبوطة.

لا أدري كيف حملت حقيبة يدي وخرجت من باب غرفة الفحص، حتى وجدت نفسي أمشي في الشارع على غير هدى، كانت المسافة بين السماء والأرض تتقلص أكثر حتى تكاد تطبق على جسدي في حين استلمني الدوار وسيطر علي.

رن هاتفي النقال عدة مرات، وكنت أتجاهله في كل مرة.

الهاتف النقال سجننا الخانق الذي لا يتجاوز راحة اليد، الجهاز الذي طوّق حركتنا وجعل الجميع يتلصص علينا خاصة أولئك الذين نفر هاربين منهم أو من تقديم توضيحات لهم، يتصلون دون ضوابط، يسألون دون توقف: أين أنت؟ متى تعود؟ أين تمضي؟ ما جديدك؟

تجاهلته هربا من الإجابة عن أسئلة مربكة، لكنه لم يحترم رغبتي، استمر في الرنين طويلا حتى دفعت بيدي إلى الحقيبة لمعرفة المتصل، على الشاشة ظهر اسم «سماح»، بالها معي دائما، صديقتي التي أحس دائما أن وجعي هو وجعها، الوحيدة التي قاسمتني الهلع والخوف.

قالت بصوت واهن بمجرد أن فَتَحتُ الخط: طمنيني!

أجبتها بهدوء: النتيجة ايجابية.

في العادة الأشياء الايجابية تكون أكثر أماناً، باستثناء تحاليل الأمراض، نتائج تحاليل السرطان بالضبط.

- لـدي سرطـان، سرطـان ثـدي. أضفـت مـع أنهـا تعـرف أنـه سرطـان ثـدي.

صمتـت لدقائـق ربمـا ريثـما اسـتطاعت أن تسـتجمع لأجـلي كلـمات تكـون بهـا جملـة مفيـدة: «كـوني قويـة، لأجـل زوجـك وأطفالـك عـلى الأقـل».

أطفالـك، الكلمـة السـحرية التـي تفوهـت بهـا لتجعـل سـيل دموعـي ينهمـر، طوفـان الأسى يفيـض مـن عضويـن بحجـم حبـة الفـول. عـلى الأمهـات أن يكـن ماكنـات ألمانيـة لأجـل أطفالهـن. لا يتعـبن، لا يمرضـن، لا يتغيـبن، لا يصيبهـن أي عطـب.

في الأفـلام والمسلسـلات الأجنبيـة حـين تخنق الظـروف أحدهـم وتضيّق الدنيـا الحبـل عـلى رقبتـه أكـثر تقـترح عليـه مخيلتـه مكانـا قصيـا، كأن يتجـه إلى أعـالي الجبـال، أو يلـوذ إلى كـوخ مهجـور، أو يسـير صـوب شـاطئ البحـر، هنـاك يبـكي ويتـأوه دون أن يراقـب عـدد العيـون التـي رأت دموعـه تنهمـر وأجـزاء روحـه المنكـسرة مشـتتة وملقـاة أمـام أنظارهـم، وفي العـادة يفتقـده شـخص حـين ينتبـه لغيابـه فينطلـق في البحـث عنـه، شـخص يحبـه للدرجـة التـي حـين يجـده فيهـا يخـبره بـكل ثقـة: كنـت أعـرف أننـي سـأجدك هنـا.

قلـت إنَّ هـذا يحـدث في الأفـلام والمسلسـلات وأضفـت الأجنبيـة، لذلـك ففـي حالتـي كدسـت الدمـوع داخـلي، صارعـت حبـل الدنيـا الـذي كان يطـوق رقبتـي، رجوتـه أن لا يطبـق عـلى نفـسي أن يمهلنـي ريثـما أصـل البيـت.

لـو كانـت جـدتي في صحـة تسـمح لهـا بتحمـل النكبـات لاتجهـت إليهـا فـورا إلى بيـت خـالي حيـث أصبحـت تعيـش بعـد زواجـي مبـاشرة، سـتتنهد ولا شـك وتطلـب منـي أن أكـون صبـورة بعـد أن تخبئنـي داخـل حضنهـا الـذي يعبـق برائحـة النعنـاع.

وحـين أسـحب رأسي وأسـألها: لمـاذا؟ سـتخبرني أن هـذا مجـرد اختبـار مـن اللـه، إن اجتزتـه سـأدخل جنتـه.

«كل مُصاب ستأجرين عليه»

حتـى عندمـا أصـاب بالـزكام أو تخـترق شـوكة أصبعـي تعتـبر هـذا اختبـارا مـن اللـه وسـيأجرني عليـه.

اختبار الله موجع جدا هذه المرة يا جدتي، لقد أصابني في مقتل.

بـدا الطريـق بـلا نهايـة، والمرعـب أنـه كان يطـول كلـما تقدمـت خطـوة، دخلـت بيتـي المـكان الـذي لا أملـك سـواه آوي إليـه، والـذي لـن يفكـر أحـد بـأن يبحـث عنـي خـارج أسـواره إن غبـت، لم أكـن أعـي بـشيء مـما يحيـط بي، حتـى الصرخـة التـي أطلقتهـا مـن أعماقـي لـو لم تمـزق صـدري حـين خرجـت مـن داخـلي لجزمـت أنهـا عـواء ذئبـة في البريـة.

أحتـاج أمـي، لقـد تنازلـت عـن غبطتهـا وأنـا أزف لهـا فرحـة أول علامـة كاملـة أحصـل عليهـا في المدرسـة، تغافلـت عـن غيابهـا وأنـا أودع عـالم الطفولـة وألـج عـالم النسـاء رغـم أننـي كنـت بأمـس الحاجـة لأن تخـبرني بـأن مثـل هـذه الأمـور تحـدث لجميـع البنـات حـين تصلـن لسـن معـين.

كان مكانها شاغرا بشكل مريع في تلك الصور العائلية الناذرة، لقد وضعت مولودي الأول والثاني وحتى الثالث وكنت أصرخ باسمها لكنها لم تكن هنا لتخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام، مرضت وذهبت إلى الطبيب ولم تكن موجودة إلى جانبي كي أنظر في عينيها فتبدأ بشرح وجعي وموضعه وحتى سببه للطبيب.

أريدها أن تعاتبني، أن ترفع يديها إلى السماء وتسأل بحنو: « يا الله أي ذنب اقترفت حتى تبتليني بابنة طائشة مثلها؟» تقول هذا فقط كي تغيظني وتجعل ضميري يتلوى من شدة التأنيب. ماهرات الأمهات في جعل الضمير يُؤنب.

أريدها أن تشتمني وتبصق على وجهي إن كان هذا يريحها، أن تتندم أنها حملتني تسعة أشهر، وتتحسر أنها أرضعتني حولين كاملين، تقول وتفعل كل هذا ثم تمسحه بضمة إلى صدرها أو قبلة هادئة على جبيني.

أريدها لدقيقة فقط، تخرج من قبرها، تحضنني الآن في هذه اللحظة بالذات ثم تعود إلى مرقدها، إلى الأسفل.

سبق وسألت جدتي: من قبض روح أمي؟

قالت: ملاك اسمه عزرائيل. مرت لحظات صمت أضافت بعدها: لكن الله أرسل ملائكته كي تقدم لك واجب العزاء في موتها.

الملائكة، المخلوقات النورانية تعزيني، وحزينة لأجلي أنا المخلوق الترابي؟

أردفت جدتي: لوعة فراق الأم تفوق كل حزن، فالله يرسل ملائكته كي تصبر قلب الوليد المفجوع بالفقد.

لماذا يخطف روحها ثم يرسل من يعزيني؟ ما الفائدة؟ سألت ببرود.

حكمته يا ابنة الكلب، انفجرت في وجهي كبرميل بنزين ألقى أحد العابثين داخله عود ثقاب، كانت شرارات الازدراء والخوف تقدح من عينيها، خمد الانفجار ببعض السباب والكثير من الاستغفار واستجداء الله أن يكون رحيما معي ويتجاوز أسئلتي المجنونة حسبها، أن يغفر جهلي ويصفح عن تطاولي، رفعت يديها للسماء وأضافت: إنها مجرد ملاك يا الله. لا تؤاخذها، رغم أنها بلغت لكن عقلها عقل أطفال.

لقد فكرت بأنني لو تسلقت الجبل سأتمكن من رؤية الله، وأسأله أين يخبئ أمي؟ أو ربما أطلب منه أن يجعلني أراها ولو على بعد أمتار، كنت ساذجة، ولكنني بريئة.

هل كنت ملاكا فعلا؟ وهل كان الملاك الذي يتربع على كتفي الأيسر عاطلا عن العمل، حتى بلغت السن التي بدأ فيها تقييد كل صغيرة وكبيرة؟ الحسنة بعشر من أمثالها هكذا أُمِر أن يكتب الذي يجلس على كتفي الأيمن، شوارع الحياة المادية التي لم أتوقف عن الركض فيها شغلتني عن العبادات، جعلت الذي يتربع على كتفي الأيسر يكتب بسرعة أكبر هكذا خمنت، حتى أنني حين تعاظمت مشاغلي فكرت أنه تخلى عن الورقة والقلم، الطريقة التقليدية، واستبدلهما بجهاز حاسوب يستطيع من خلاله ترتيب وتدوين أخطائي

بطريقة منظمة أكثر من جهة ومن جهة أخرى كي يواكب العصر وتكنولوجياته.

تخيلاتي لا تنتهي، خيالي لا يتوقف عن رسم ما لا يجب رسمه، وكتابة ما لا تجب كتابته، خيالي هذا أعطيته الحرية ليبتعد أينما شاء، عدا الاقتراب من طرف لساني.

حكمته!

لا أريد التدخل في شؤون الإله، ولا في طريقة تسييره لشؤون خلقه، ولا لماذا خلقهم من الأساس، حتى لو كانت الزاوية التي أقف عندها وأشاهد ما يجري تجعلني أحتج على الكثير من الأمور.

لماذا أنا؟ ولماذا حكمته اختارتني أنا بالضبط؟

ولماذا لست أنت؟ صوت داخلي أجابني مستفسرا، خمنت أنه صوت الحكمة.

ما أقسى الأسئلة التي لا تمتلك أجوبة، تجعلنا نجيب عنها دائما بأسئلة أخرى لا تملك أجوبة هي أيضا، تدخلنا في متاهة، متاهة تفضي إلى متاهة، متاهة من المتاهات.

من قبض روح أمي؟ أعيد طرح السؤال بعد أربعين سنة من رحيلها، لكن لا أستشف أي إجابة مسكنة لحمى مشاعري، أتطاول أكثر لأسأل: لماذا لم يمهلها حتى هذه اللحظة؟ اللحظة التي أُكسَر فيها كي يرممني حضنها.

زوجة أبي ومهما حاولت أن تتقمص دور أمي لم تستطع، في المرات النادرة التي كنت أزورهم فيها كانت تسعى جاهدة لأن تغير الصورة النمطية لزوجات الأب، على الأقل أمام أبي الذي لم يكن يهتم أصلا والذي كنت أرى تعامله مع أطفاله مغايرا تماما لتعامله معي أنا الغريبة جدا البطة السوداء، لكنني ولأني لم أرد للصورة أن تتغير معي وعلى يديها لم أعطها حتى الفرصة لتستمر في محاولاتها، الصورة التي لم أستطع أن أر لها غيرها، تخبئ تفاحة حمراء مسمومة في جيب معطفها، تتحين الفرصة المواتية كي تجعلني أقضمها ويغمى علي، فيما بعد تبين لي جليا أن الحياة لوحة كبيرة مبهمة، حقلٌ ضخمٌ من الأشجار التي لا تنتج سوى تفاح زوجات الآباء.

هل أنت بخير؟ لماذا لم تعودي للبيت حتى الآن؟

رسالة نصية قصيرة وصلتني من زوجي على هاتفي النقال التي قرأت في حروفها الحيرة، وبين سطورها ربما لماذا تفعلين هذا بي؟

بطرف غطاء رأسي مسحت عيني الملتهبتين من فرط الدموع التي ذرفتها، وأرسلت بيدي اليمنى لتنفض الغبار الذي علق بثوبي على مؤخرتي بعدما قضيت وقتا لم أدر مدته وأنا جالسة على التراب إلى جانب قبر أمي، كنت قد بكيت بحرقة وكأنها ماتت للتو أو على الأكثر منذ قليل، سرت بعدها بخطى متثاقلة بين القبور.

تحت.. هناك إنسان ما، رجل، امرأة، رضيع، شيخ، أتوا إلى هذه الدنيا ليعيش كل منهم القصة التي تشاركت جميع الظروف

في نسجها، وغالبا تشارك الجميع مع الظروف باستثنائه، ثم ها هو يرقد تحت التراب، هل استراح؟

ماذا يفعلون في الأسفل؟ سبق وقرأت أن الميت له ميتتان، الأولى حين تودّعه الروح ويوارى الثرى، أما الثانية والتي تعتبر الحقيقية والقطعية هي حين يموت في قلوب أهله ومحبيه.

في طريق عودتي إلى البيت، ورغم أنني كنت أرى العالم من خرم إبرة إلا أنني قمت بالرد على رسالته من خلف ستار الدموع. لم أكتب الكثير، أخبرته أني قادمة وأضفت كلمة نتمنى جميعا سماعها ونأبى قولها، متقشفين إلى الحد الذي أصابتنا المجاعة العاطفية بسبب قلة تناولها وتداولها « أحبك!»

أحبك، الكلمة الجميلة الوحيدة التي استطعت أن أخرجها لأجله من مستنقع المشاعر المتضاربة التي أحطت نفسي بها.

كنت أسأل نفسي دائما: «ماذا لو خطف الموت أحدنا؟ كيف يمكن لأحدنا أن يعود فردا بعدما انصهر في فكرة كونه زوجا.. زوجي أنا كيف سيعيش فردا من بعدي؟!»

أيها الوقت، على رسلك، تمهل أرجوك، لدي الكثير من الأشخاص والأشياء والأماكن لم أُسمعهم بعد كلمة «أحبك»

حين دلفت باب البيت كنت قد جاهدت كي أترك دموعي عند العتبة مثلما عاهدت نفسي.

كان زوجي يجلس في الصالون، تحاشيت النظر في عينيه، العيون جهاز كشف لا يخطئ أبدا، أما هو فلم يكن ينظر إلي أساسا، كان يمسك بين يديه هاتفه النقال دافنا رأسه في شاشته ومنشغلا بمواكبة آخر المستجدات على مواقع التواصل الاجتماعي، سألته إن تناولوا طعام الغداء، أجاب باقتضاب أن «نعم» «وقد عاد آدم وماريا إلى المدرسة» قال:

- «ليس هناك سوانا في المنزل» وابتسم

-»شكرا على الكلمة التي أرسلتها» أضاف مغتبطا.

لم أتحاش النظر في عينيه هذه المرة، جلست قبالته، ولأول مرة منذ سنوات أقرأ الاهتمام في ملامحه وهو يسألني: ما بك؟

- لدي ورم خبيث، سرطان ثدي، un cancer du sein . قلتها بسلاسة دون مقدمات، دون أن أمهد له الطريق لبحر الحيرة الذي سيغرقه.

تغيَّر وجهه في رمشة عين، تغيرت ملامح الاطمئنان أو بالأحرى ملامح اللاشيء واستبدلت بملامح الحيرة.

كان رأسي مدفونا في حضنه حين لان الصخر الذي يصر أن يكونه عادة وبدأ ينتحب مثل طفل صغير، قال بعد أن هدأ كلانا: «أنا معك، لا تخافي.. «وطلب مني أن أعيد شرح وضعي من البداية.

05

كل شيء يبدو جليا الآن، لقد سقط قناع تمثيليتي فاشلة التأليف، مبتذلة الإخراج. الموت ينتصب أمام عيني، التفكير في الخطوة المقبلة يزيد من اهتياجي، كان زوجي كريما أكثر مما توقعت دائما، تولى أمر الاعتناء بالأطفال خلال عطلة نهاية هذا الأسبوع، كلما مددت يدي إلى عمل ما، كان يتوسلني بوداعة أن أرتاح. كان يتوارى غالبا كي لا أرى احمرار عينيه وتقاسيم وجهه التي بدت أكثر إنهاكا من أي وقت مضى. ضبطته في أحيان كثيرة تائها، تمنيت أن أدخل رأسه لأعرف ما يخطط له، وبماذا يفكر تحديدا، إن كان يشعر بالأسف لأجلي فعلا، لأجل أطفالنا، أم لأجله؟!

أما «سماح» فكانت تتصل أكثر من مرة في اليوم لتذكرني بأن أكون قوية، أو لتعيد ذكر بعض الفحوصات التي يجب أن لا أنساها كي أسرع إجراء العملية قبل أن أنتقل إلى العلاج الكيمياوي.

الكيمياوي؟ كنت سأدخل في دوامة جديدة من الحيرة، لكن البتر كان يستولي على كل تفكيري، أنوثتي على المحك، مجرد تقليب الفكرة داخل رأسي يفضي بي إلى المزيد من الحيرة والألم، تصديق الفكرة بحد ذاته يحتاج إلى قوة تضاهي قوة تقبلها.

تعيد «سماح» نصائحها دون ملل، «سماح» صديقة الطفولة، التي تقاسمنا سويا ذكرياتها البريئة، ثمّ طيش المراهقة، ورغم أننا افترقنا أثناء الدراسة الجامعية إلا أن حبل الود لم ينقطع يوما كما لم تنقطع أخبارنا عن بعضنا أبدا.

كانت تتمنى دائما أن تحقق حلم والدتها وتصبح طبيبة ترفع رأس العائلة البسيطة غير أنها لم تفلح فاختارت أن تكمل مشوار جدتها وتصبح ممرّضة، تساعد نساء الوطن في ذر المنتوج الأكثر وفرة على الإطلاق.

ورغم أنها كانت ملاك الرحمة الذي ساعد الكثير من الأمهات على إخراج أطفالهن إلى نور الحياة إلا أنها اكتفت بإنجاب طفلين، قالت أن هذا كاف وكثير عليها وعلى زوجها الموظف البسيط، اكتسبت خبرة طبية كبيرة من كثرة احتكاكها بالمرضى والأطباء حتى أصبحنا نقول عنها أنها طبيبة بالخبرة.

في بداية مشوارها في المشفى كانت تختفي كفأر مذعور وأحيانا كثيرة يغمى عليها حين لا تتحمل أي حدث طارئ، الآن ترتشف قهوتها وتسرد على محدثها تفاصيل موت رضيع فلانة أو اختناق فلانة أثناء الولادة.

أيها المرض، ما الذي جعلك تظهر لي في غمرة كل هذا الزخم من الروتين، لتهبني الموت؟ إنك مدخل قاس للموت، مدخل مريع.

ما الموت؟ تقول جدتي إنه التقاء الأرواح التي أضناها الشوق في السماء، يقول «محمود درويش»: إن الذين ماتوا نجوا من الحياة

بأعجوبة، يقول لسان العرب عن الموت: « زوال الحياة عمن كانت فيه» كما يصنفه إلى أنواع: الأحمر وهو الموت قتلا، والأبيض وهو زوال الحياة عن الكائن طبيعيا ، والأسود وهو الموت خنقا»

ترى أي لون يليق بالموت خوفا، منتظرا؟ إنه كل الألوان السابقة، لا بل كل ألوان الطيف السبعة، يأتي الإنذار فجأة على شكل مرض قاتل ليجعلك تختنق كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة.

أمضي جل الوقت في تصفح الشبكة العنكبوتية، انضممت إلى مجموعات أطلق عليها في الغالب اسم «تحدي السرطان» «مكافحة السرطان» «قهر السرطان» «صرع السرطان»، يبدو الأمر شبيها بمكافحة الإرهاب أو العصابات المتطرفة التي عاثت فسادا وقلبت أمان بلد ما رأسا على عقب. زادتني المعلومات التي ينشرها كل متصفح رعبا!

أنشأت ملفا خاصا على سطح مكتبي حفظت فيه الكثير من الكتب التي حملتها عن الموت وعن السرطان والعديد من الصور الزهرية المعبأة بالنصائح والإرشادات المكررة في الغالب.

في طفولتي ولأنني لم أكن أملك ترف الأطفال وألعابهم، ولا حتى إخوة أمضي الوقت في اللهو والشجار معهم كما يفعل أغلب الإخوة، كنت أتسلل إلى خزانة خالي قبل أن يحرقها حين قيل له أن الروايات، والقصص وكل الكتب عدا كتب السلف الصالح حرام. في ذلك الوقت أحرق فيه الكثير من ذاكرته، صور والديه، أطفاله، أصدقاءه وطفولته، الذكريات التي حتى لو دفع عمره ثمنا لها فلن تعود، رغم أن الثمن في البداية كان جد تافه: فتوى.

تعلقت بالكتب والمطالعة ولكن أكثر ما كان يجذبني السير الذاتية، ربما كنت أبحث في سيرة أحدهم عمن يقاسمني بعضا مما عايشته، حتى لو كانت لحظة عابرة.

الشعور بأن أحدهم مر بظروفك نفسها أو بظروف أسوأ من التي أرغمتك الحياة على عيشها يبعث ببعض ذبذبات الارتياح والرضا للنفس. تنطبق إلى حد بعيد مع المثل الأكثر ترديدا لدى الكثيرين: «إذا عمت خفت»

فكرة القراءة عن حياة شخص، عن سيرته من اللحظة التي يلوح فيها باليمنى مودعا رحم أمه وباليسرى مستقبلا الدنيا إلى اللحظة التي قرر فيها إشباع غريزة الفضول الشرهة لدينا لمعرفة أسرار الآخرين، هذه الغريزة وتلك الفكرة تحركاننا جاهدتين للدفع مقابل الإطلاع على خصوصياته حتى الأكثر حميمية.

نام الجميع، زوجي الذي أصبح مشتتاً حائراً كيف يتصرف، أو ما الذي يستطيع تقديمه لي كي يخفف عني؟ وأطفالي الذين صرت ألاعبهم وأقبلهم أكثر من أي وقت مضى، أحضنهم وأبكي لأجلهم ولأجلي دون توقف.

الهدوء يغلف المنزل، لم يبق مستيقظا غيري وحاسوبي، زوجي يشخر كالعادة ليطمئنني أنه إلى جانبي، الرضيع بكى كثيرا قبل أن ينهكه التعب ويصرعه النعاس، «ماريا» و«آدم» تشاجرا على عدة أشياء تبدو تافهة .. ثم انخرطا في الحديث عن المدرسة، تبادلا قصص بعض زملائهم، سخرا من بعضهم الآخر، تهامسا أشياءً أراداها أن تكون سراً بينهما قبل أن يستسلما للنوم.

حاسوبي على ركبتي، نظري ارتكز على شاشته لدقائق ريثما تم تحميل السيرة الذاتية التي سوف أنغمس في قراءتها:

« السرطان مرض توسعي، فهو يخترق الأنسجة، ويقيم مستعمرات في الأراضي المعادية، ويطلب (اللجوء) في أحد الأعضاء، ثم ينتقل إلى موضع آخر. إنه يعيش بشكل متهور، مبتكر، وقاس، وموضعي وحذر ودفاعي، كما لو كان يعلمنا كيف يجب أن نعيش. إن مواجهة السرطان هي مواجهة لجنس آخر يستطيع أن يتعايش أكثر منا»[2].

«لا أحب قراءة السير الذاتية لأن لا أحد يروي كوارثه بصدق»، عكس رؤيتي تماما هذا ما تقوله عادة زميلتي في المكتب لمحتني أتصفح كتب السيرة، تلك التي لا أراها إلا عند بداية ونهاية الدوام. قد تكون صادقة فيما يخص جميع السير التي كتبت على وجه البسيطة، إلا هذه.

الاختناق يحاصرني ويسعى لتطويقي في محاولة جادة لابتلاعي، إمبراطور الأمراض، سيرة ذاتية، أقرأ سيرة وحش يستوطنني ويغتصب أعضائي وجميع حواسي، أتنفس بصعوبة، بدا الأمر كأن كرة صلبة ملتهبة استكانت داخل حلقومي، ازدردت ريقي بصعوبة حين تذكرت أنه دخل حربا ليس لديه فيها ما يخسره مع بائسة مثلي لديها كل شيء معدّ للخسارة. هكذا إذن حرب حامية الوطيس تدور رحاها داخل جسدي المنهك، الثعلب الماكر ينهشني ليعلمني دروسا في العيش، لكل شيء ثمن حتى دروس كهذه. دروس يستحيل استيعابها أو حتى تقبلها...

2 كتاب امبراطور الأمراض: السرطان سيرة ذاتية، الكاتب سيدهارتا موخيرجي، ترجمة طارق عريان، الجزء الأول، صفحة 82

اشترى أحدهم بردية بطول خمسة عشر قدما تعود للقرن السابع عشر قبل الميلاد، تمت ترجمة البردية سنة 1930م وكانت تحتوي تعليمات تم تجميعها للفيزيائي المصري «إمحوتب» الذي عاش سنة 2625 قبل الميلاد، وصف «إمحوتب» الكثير من الحالات كحالات طبية بعيدة عن السحر والتنجيم ووضع لكل حالة قاموسا لغويا تشريحيا، مشخصا إياها ومتنبئا باحتمالاتها.

ويقول «إمحوتب» في وصفه للحالة الخامسة والأربعين:

«إذا قمت بفحص (حالة) ذات كتل بارزة على الصدر ووجدت أن هذه الكتل قد انتشرت على الصدر، إذا وضعت يدك على صدرك ووجدته باردا وليس به حمى على الإطلاق، فلا تحتوي هذه الكتل على حبيبات، ولا سائل ولن تؤدي إلى تصريف سائل، لكن إذا شعرت بأن هذه الكتل بارزة عند لمسها، يمكنك أن تفسر تلك الحالة كمايلي: إنها عبارة عن كتل ناتئة يتحتم عليّ مواجهتها..» [3]

أستريح للحظات لأتساءل: كيف يتوجب علي مواجهتها؟ وكالعادة لا أجد سوى المزيد من الحيرة.

... يمكن أن تكون عبارة كتلة ناتئة في الثدي باردة وصلبة وكثيفة كثمرة دموية hemat تنتشر تحت الجلد بمثابة وصف قوي لسرطان الثدي. وقد أتبع كل حالة في البردية بمناقشة وجيزة للعلاجات، حتى لو كانت مجرد مسكنات مثل: صب اللبن في أذن مرضى الجراحة العصبية، وضع كمادات للجروح، استخدام مراهم عطرية للجروح.

3 مرجع نفسه صفحة 85

لكـن في الحالـة الخامسـة والأربعـين، وقـف «إمحوتـب» شـدوها عـلى غـير العـادة. وتحـت القسـم الـذي يحمـل عنـوان: (العـلاج) ذكـر جملـة وحيـدة فحسـب: (لا يوجـد عـلاج). [4]

لا يوجـد عـلاج.. أهـذا أقـصى مـا أمكنـك قولـه يـا «إمحوتـب»؟ حسـنا لا يوجـد عـلاج، ألا يوجـد أمـل؟ اللغـات، اللهجـات، الكلـمات وحتـى الإيمـاءات لا حـصر لهـا أيهـا البخيـل، كلهـا كانـت سـتتجند لمسـاعدتك كي تنتقـي أيـا منهـا حـين تعلـم - ولا أدري كيـف- أنهـا سـتبعث بخيـط أمـل لمفزوعـة مثـلي. مـن المؤكـد أن جميـع اللغـات هربـت منـه آنـذاك ولم تبـق سـوى جملـة واحـدة ترافـق حيرتـه « لا يوجـد عـلاج»، لمـاذا لم تتطـوع جملـة أخـرى تفـرض نفسـها لتثبـت أن الأمـل قائـم؟ عـلى الأقـل تحفـز الأطبـاء الذيـن لا يزالـون مكتـوفي الأيـدي منـذ زمنـك حتـى زمنـي.

لا يوجـد عـلاج، تريـث أيهـا المـوت لـدي الكثـير مـن الأشـياء التـي لم أفعلهـا بعـد، تمهـل رجـاء فالقائمـة طويلـة.

العمليـة تنتظـرني، سـأتغيب يومـين حسـب أقـوال «سـماح»، لم أغـير شراشـف الصالـون، لم أطبـخ لآدم الطبخـة التـي طلبهـا وألـح عليهـا مـرات عـدّة، لم أزر منـذ مـدة طويلـة جـدتي التـي انكمشـت أكـثر، «ماريـا» وعدتهـا أني سـأرافقها للمدرسـة كي أطلـب مـن معلمتهـا أن تغـير لهـا مـكان

4 مرجع نفسه صفحة 82

جلوسـها لأنهـا ولسـبب مـا لم تعـد تطيـق مَـن تشـاركها مقعـد الطاولـة بعدمـا كانـت لا تطيـق فراقهـا، عجبـا كيـف تتغـير أهواؤنـا! الرضيـع كنـت سـأحيك لـه طاقيـة لفصـل الشـتاء الـذي بـدأ بإرسـال منبهـات وصولـه، لقـد اخـترت نوعيـة الصـوف التـي سأسـتعملها، انتقيـت اللـون الأزرق لكننـي تأخـرت في مبـاشرة العمـل بجديـة، إننـي داخـل نطـاق الوقـت بـدل الضائـع.

06

رافقني زوجي لإجراء الفحوصات التي طلبت منا، تنقلنا كثيرا بين أروقة المستشفيات والعيادات، جلسنا مُنهكيْ القوى على المقاعد الحجرية في الحدائق العامة، تناولنا العديد من كؤوس الشاي، وأكواب القهوة المركزة، أمسكنا يدي بعض بحب وتقاطعت نظراتنا في أكثر اللحظات حرجا.

أجريت تصويرا إشعاعيا للعظام، وكذلك تصويرا مقطعيًّا للصدر والبطن.

كنت في كل مرة أتهرب من أسئلة طفليَّ، أين تذهبين؟ متى تعودين للعمل؟ لماذا لا تأخذيننا معك؟ أطلب منهما عادة أن ينتظراني عند مدخل باب المنزل حين يعودان من المدرسة ويرنان جرس الباب ولا أكون هناك لأفتح لهما، أجازف أحيانا وأترك لآدم مفتاح الشقة ليكون مسئولا عن نفسه التي تحتاج مسؤولية وعن أخته.

أشغل تفكيري طوال الطريق، ماذا لو أوقدا فرن الغاز؟ ماذا لو نسيا الباب مفتوحا أو لحق بهما سارق ابن حرام؟ ماذا لو سقط أحدهما في الحمام ولم يجد من يسعفه؟

كإجراء حاسم، أُخرس في النهاية جميع الأصوات المستمرة في الجدال داخل رأسي والتي لم تراعِ شدة إنهاكي وكأنني كنت بحاجة

للمزيـد مـن الأسـئلة التـي تعكـر مزاجـي المعكـر مـن الأسـاس.

ملـف أصفـر، ولأكـون دقيقـة فاصفـراره يميـل إلى البنـي أكـثر، كان ثالثنـا الـذي رافقنـا في كل زياراتنـا للفحوصـات التـي أجريتهـا، بـدأ بورقـة داخـل جوفـه، ووصـل معنـا آخـر المطـاف أن عُبِّـئ بدزينـة مـن الأوراق والفحوصـات الإشـعاعية.

أصبـح مكتمـلا الآن، هكـذا قـال الطبيـب الـذي سـلمنا آخـر فحـص أجريتـه.

كل شيء بـدا واضحـا الآن، تقاتـل الأشـياء السـيئة باسـتماتة وتفـان لتبـدو أكـثر وضوحـا أمامنـا، الـورم مسـتقر عـلى الجهـة اليـسرى مـن صـدري، الأشـعة التـي أجريتهـا للعظـام والـرأس تقـول أن الثـدي انفـرد بالـورم وأنهـا بريئـة وبعيـدة كل البعـد عـن أن تخوننـي. لكـن بعـض الهواجـس تخـبرني أنـه يعـد لي كمينـا، وأنـه مختبـئ في مـكان مـا ليفاجئنـي في ظـرف مـا حـين لا أكـون مسـتعدة كالعـادة، إنـه ثعلـب يهـوى لعبـة الغميضـة، اللعبـة الوحيـدة التـي تمنيـت أن تطـول طفولتـي لألعبهـا أكـثر قبـل أن أتفطـن إلى أن الحيـاة تلعبهـا معـي بإتقـان. لا، جـل الـذي أخشـاه أن يكـون أكـثر مـن ثعلـب، أن يكـون ذئبـا، ذئـب جائـع لـن يبرحنـي حتـى يلتهـم كل ذرة مـن جسـدي. الذئـاب لا تشـبع أبـدا، إنهـا مصابـة -ولسـوء حظـي- بلعنـة الجـوع.

في كتـاب كُتـب سـنة 440 قبـل الميـلاد، سـجل أحـد المؤرخـين قصـة ملكـة فـارس تدعـىAtossa ، «أتوسـا» مثـلي ومثـل الكثـيرات اكتشـفت كتلـة في ثديهـا، إنـه سرطـان الثـدي. بعـد أن فرضـت عـلى نفسـها العزلـة

ونـأت بنفسـها عـن الآخريـن، أقنعهـا عبـد إغريقـي أن تسـمح لـه بـأن يقـوم باسـتئصال الـورم.

الاسـتئصال لا بـد منـه، إنـه العـلاج نفسـه الـذي أخـبرني بـه طبيبـي والـذي أقنـع بـه العبـد الملكـة «أتوسـا» رغـم الفـارق الشاسـع في الزمـن.

كم عاشت «أتوسا» بعد ذلك؟

«أتوسـا» الملكـة، ملكـة ولكنهـا واحـدة مـن بـين الملايـين، رقـم مـن قائمـة طويلـة جـدا لمـرض مـصرّ عـلى تجريـب أكـثر عـدد ممكـن مـن الأثـداء.

كم من امرأة كانت قبل «أتوسا» وكم من امرأة أتت بعدها؟

كم من امرأة تألمت وكم من شخص حمل معها ألمها؟

هل كان وسيكون معظم الأزواج مثل ذلك الرياضي؟

الـزوج الـذي حمـل معانـاة زوجتـه متضامنـا مـع مرضهـا عـن طريـق شريـط زهـري ربطـه عـلى معصمـه خـلال مشـاركته في إحـدى الماراطونات، يقـال أن ذلـك الشريـط الـوردي هـو الـذي أصبـح الرمـز العالمـي لهـذا المـرض. لا أدري مـدى صحـة هـذه القصـة ولا احتماليـة وجودهـا مـن الأسـاس لكنهـا دغدغـت مشـاعري وقمـت بتصديقهـا فـوراً، صدقتهـا لأنهـا أحيـت في مـا ظننتـه ميتـا. مثلـما سـيتفاعل معهـا كل مـن سـيقرؤها لأنهـا الأكـثر رقـة ورومانسـية وسـط كل هـذه القسـوة التـي يخلفهـا المـرض، ولأننـا كائنـات هشـة جـدا، وتـزداد هشاشـتنا حـين يزورنـا المـرض.

كـم مـن امـرأة أصيبـت داخـل الفجـوة الزمنيـة بينـي وبـين زوجـة الريـاضي؟ وكـم مـن امـرأة سـتأتي بعـدي؟

الاستئصال لا بد منه، قالها العبد الإغريقي، كما رددت «سماح» الأمر ذاته، والطبيب الذي سيجري العملية وقرأت عنه في الكثير من المقالات العلمية..يجب أن أرضخ وأستكين للوضع، أن أحني قامتي للاستئصال وأحمد الله أن الورم محاصر ولم يدغدغه الفضول بعد لاكتشاف مناطق أخرى من الجسم.

علي أن أحضر نفسي وأهيئها للعملية، أن أكتفي من الركض هربا منها ومن قدري عند هذا الحد فكل الذي يخيفنا ونلهث هاربين منه نجده آخر الشارع يضع ساقا فوق الآخر، يدخن بشراهة، ويترقبنا بنظراته اللئيمة.

المتاهة التي دخلتها تزداد تعقيدا وتفرعا يوما بعد الآخر، الأحداث تتسارع بشكل مرعب، أغدو وأذهب، بجهاز تحكم يوجهني به الأطباء، العديد من الأشعة، التحاليل، الحقن، والكثير من الدموع عند نهاية كل يوم.

كآخر محاولة، اتصلت بسماح متجاهلة كل ما سبق وسمعته وقرأته وحفظته، تجاهلت ما قاله «إمحوتب» والعبد الإغريقي وما ردده الأطباء وحتى ما أكدت عليه هي، وسألتها:

هل الاستئصال ضروري؟

أكيد. أجزم أنها تنهدت وأخذت نفساً عميقاً على الجهة الأخرى من الخط، ومع ذلك بدت جد هادئة حين أضافت:

حسنا ركزي معي جيدا، الأمر لا يتطلب الكثير من الذكاء، بل لا يتطلب ذكاءً من الأساس، يمكن اعتبار الجسم صندوق طماطم،

ولديك حبة طماطم تمردت وتعفنت. هل تحتفظين بها؟ هل من المنطقي أن تخسري الصندوق بكامله بدل التضحية بحبة واحدة؟ سألتني بحزم.

أجبتها خانعة بعد تردد بأن «لا»

- هل استوعبت الأمر؟

- نعم، أجبت بإيماءة من رأسي، ثم أضفت نعم فهمت، حين انتبهت أخيرا أنها لا ترى حركاتي وإيماءاتي.

إذن عليك إخراج حبة الطماطم خارج الصندوق، دون أسف أو تحسر، وإلا سيصبح الصندوق كله تلك الحبة المتعفنة اللعينة.

وقبل أن تضيف شيئا أحسست بحموضة تصر أسناني التي اصطكت فجأة.

صمتنا قليلا ثم قررت أن أصارحها بقراري وأطلعها على أمري الذي حسمته:

- لن أجري العملية هنا، سأسافر إلى الخارج.

ولكي لا أجعلها تظن أنني أمزح أردفت: الطب في الخارج أفضل بكثير من هنا، الأجهزة متطورة وحتى الأطباء.

- ألا تثقين بما أقوله لك أنا على الأقل؟

- ليس بك أنت، بل بالأطباء هنا، كنت أريد أن أضيف أنكم شلة من الفشلة ولكنني تراجعت.

كـما تشـائين، لكـن فليكـن في علمـك أن الاسـتئصال لا بـد منـه بسـبب حجـم الـورم لديـك، هنـا أو في آخـر الدنيـا، طبعـا إلا إذا كان لديـك مـال قـارون أو خاتـم سـليمان واتجهـت إلى أحـدى مستشـفيات اليابـان أو أمريـكا.

خمنـت أننـي خدشـت مشـاعرها، لكننـي لم أكـترث. قلـت مع السـلامة وأقفلـت الخط.

فتحـت حسـابي عـلى الفايسـبوك خصيصـا لأبحـث عـن أسـماء الجمعيـات التـي نـذرت نفسـها لمسـاعدة المعدمـين وأمثـالي، خانـة الرسـائل تحتـوي العديـد منهـا، الكثـير مـن الإشـعارات أيضـا، لكـن لم يحركنـي فضـولي لمحاولـة معرفـة الفحـوى. كتبـت في خانـة البحـث كلمـة « سرطـان» لتفتـح أمامـي العديـد مـن أسـماء الصفحـات والمجموعـات، اخـترت الصفحـات المسـبوقة بكلمـة جمعيـة، دونـت اسـم إحداهـا عـلى قصاصـة ورق بيضـاء بعـد أن تأكـدت أن مقرّهـا يقـع في مدينتـي وبالقـرب مـن مـكان سـكني، سـجلت رقـم هاتفهـم وعنوانهـم بالتفصيـل.

أخـبرت زوجـي أننـي سـأزورهم، لم يشـأ أن يكـرر معـي سـيناريو أن الطـب هنـا أو في تونـس هـو نفسـه، وأن جميـع مـن استشـارهم قـد أفهمـوه بـأن العميلـة هـي نفسـها في كل مـكان، لم يشـأ أن يقطـع خيـط الأمـل الرفيـع الـذي اخـترت السـير عليـه. كل الـذي فعلـه هـو أن تمنـى لي التوفيـق.

في مكتـب الجمعيـة جلسـت لمـدة سـاعة أمام مكتـب السـكرتيرة أنتظر مجـيء المسـير، شـابة في بدايـة العشرينـات مـن العمـر، زهـرة الشـباب

كـما يطلـق عليهـا، تفـوح منهـا رائحـة عطـر هـادئ مثـل صوتهـا، مثـل ابتسـامتها، مثـل رقتهـا.

بجانـب مكتـب السـكرتيرة غرفـة صغـيرة جـدا تفـوح منهـا رائحـة الملابـس المسـتعملة اسـترقت النظـر مـن البـاب الـذي يربـط الحجرتـين، كانـت الثيـاب موزعـة عـلى ثـلاث علـب كبـيرة، ملابـس للنسـاء، للأطفـال، وللرجـال، رغـم هـذا التنظيـم في التقسـيم إلا أنـه في كل علبـة كان قـد اختلطـت الثيـاب الصيفيـة بالشـتوية، بجانـب هـذه العلـب هنـاك خزانـة بعـدة أرفـف معبـأة بأدويـة متنوعـة، أغلبهـا تـم شراؤه ولم يسـتعمل. ربمـا آثـر المريـض النـزول للعـالم السـفلي قبـل مـد خطـوة واحـدة نحـو رحلـة العـلاج.

ملفـي الطبـي أحتضنـه بـين يـدي في حـين الكثـير مـن الملفـات المختلفـة الألـوان والأحجـام مرصوصـة عـلى مكتـب الفتـاة. كانـت تتفحـص هاتفهـا المحمـول وبـين الحـين والآخـر ترفـع رأسـها لتسـترق النظـر إليّ وحـين تتقاطـع نظراتنـا تسـتغل الفرصـة وتلقـي عـلي سـؤالا بصـوت رقيـق ناعـم يبعـث الـدفء جعلنـي أجيـب عـلى باقـي أسـئلتها برحابـة صـدر. اسـتفسرت منـي عـن سـبب مجيئـي وعـن حالتـي الاجتماعيـة، وعـن عـدد أطفـالي، وعـن وضـع زوجـي المـادي، ولـو لم يـأت مسـير الجمعيـة أو تأخـر أكـثر لسـألتني كـم بلاطـة في غرفـة نومـي.

ألقـى التحيـة ورحـب بي أكـثر حـين أخبرتـه الفتـاة صاحبـة الصـوت الدافـئ أننـي انتظـره مـا يربـو عـن السـاعة، جلـس خلـف مكتـب مقابـل لمكتـب الفتـاة، ابتسـم بـود وشرع في التحـدث عـن جمعيتـه وعـن

المساعدات التي يقدمونها وعن الأعمال الجليلة التي أنجزها وفريقه، كان هادئا جدا، يتحدث بنبرة المتحكم في كل كلمة تتحرر من شفتيه. كنت أستمع إليه باهتمام، أبتسم بين الحين والآخر وأضيف: الله يبارك، ربي يقويكم.

توقف قليلا ثم سألني كيف اهتديت إليهم؟ شرحت له باسترسال، رغم أن كلماتي بدت جد مرتبكة أمام كلماته.

بدا مغتبطا بالمساعدة التي سيقدمها لي قبل أن أوضح له سبب مجيئي، تحمست أكثر لأسرد عليه وضعي بالتفصيل، أخرجت من ملفي الطبي جميع الفحوصات والأشعة التي أجريتها ووضعتها أمامه، بدا مهتما بعض الشيء بتقليب الأوراق وتفحصها.

قال أخيرا: طيب سيدتي، طبيب الجمعية سيساعدك فيما يتعلق بإجراءات إجراء العملية في المشفى، لديه الكثير من المعارف والأصدقاء، سنعمل على تسريع العملية ولن تنتظري طويلا دورك إن شاء الله، لا تقلقي، لقد مرت علينا عدة حالات مشابهة لحالتك، وسبق وأقمنا عدة حملات توعوية في الشارع للكشف عن سرطان الثدي، أظنك مطلعة على نشاطاتنا؟!

أثنيت على جهوده وجهود فريقه الجبارة وأخبرته صراحة أني لا أريد أن أبقر داخل أي من مستشفيات الوطن، كل الذي أرجوه وأطمح إليه هو مساعدة مادية من الجمعية ومحسنيها كي أجري العملية خارج الجزائر، في تونس، أضفت.

على اِثر طلبي شبك يديه بطريقة مضطربة، تنحنح خيم بعض الصمت وأنا أحملق في الفراغ قبل أن تصلني كلماته فاقدة توازنها ومعتذرا عن مساعدتي، بدا متأسفا جدا وانشغل بالبحث عن شيء يضيفه كي يريح ضميره قليلا، ورغم أنني لم أكن بحاجة لأن يضيف حرفا غير أنه قال: صدقاً، لقد توقفنا عن جمع المبالغ وتقديمها لأي كان.

لم أستفسر عن السبب ولكنه أضاف من تلقاء نفسه: في العام الماضي جمعنا مبلغا ضخما لأحد المقعدين لكي يكمل علاجه في الخارج، يجري عملية جراحية تمكنه من السير على قدميه، لكنه بدل ذلك كله غير خطته وقام بشراء سيارة، صار يرفع يده ليلوح لي بها كلما مر بجواري رفقة أخيه، سائقه.

لكنني لن أشتريَ سيارة. أردت أن أفهمه غير أنني لملمت خيبتي، وانحنيت لألملم معها أوراقي المبعثرة وصور الأشعة المتفرقة على الطاولة وانصرفت شاكرة لطفه قبل أن تتكدس الدموع داخل عينيَّ وتصبح الرؤية ضبابية.

رأس واحد غير كاف لتحمل كل هذا الصداع، جسد واحد غير قادر على تحمل كل هذا الألم، وقلب واحد غير قادر على احتواء كل هذا الخراب.

ضعفي وقلة حيلتي الآن أقوى من كل ضعف مررت به، ضعف يحتاج لشيء خارق يبتلعه ويحيله إلى قوة، يحتاج إلى صدر أم.

عـدت إلى البيـت أجـر خيبتـي وانكسـاري، وفشـلي فيـما صبـوت إليـه أكـثر عـراءً، بـاب الأمـل المتبقـي سـدّ في وجهـي، كل الأشـياء والأشـخاص والظـروف والمواقـف اختـارت أن تكـون ضـدي، وفي ضفـة أخـرى وبعيـدا عــن كل هــذا بيتــي، أطفــالي زوجــي، نباتــاتي المرصوصــة في البلكونــة، «ســماح»، جـدتي، كل هـؤلاء ينتظـرون منـي اتخـاذ القـرار، الاسـتئصال ومبـاشرة العـلاج.

كنـت أتنقـل مـن غرفـة إلى أخـرى داخـل المنـزل كمـن أصابـه مـس، البـرود يلـف قلبـي، والحـيرة تعبـث بأفـكاري، سـيعود الطفـلان بعـد قليـل، ومـاذا عـن الرضيـع؟ أحتـاج لبعـض القـوة كي أصعـد الـدرج وأجلبـه مـن عنـد المربيـة، عـلي تحضـير الغـداء، يـداي مشـلولتان، مشـتتان غـير قادرتـين عـلى الإتيـان بـأي حركـة ومـع ذلـك اتجهـت صـوب الثلاجـة، كانـت شـبه فارغـة المحتـوى، اللهـم إلا مـن بعـض الخضـار الذابلـة وحبتـي طماطـم متعفنتـين. انتبهـت إلى أننـي لم أعـد أطبـخ منـذ أيـام، صرت أقـلي أعـواد البطاطـا وأحيانـا حـين أكـون كريمـة بعـض الـشيء أخفـق بيضتـين أو ثـلاث مـع بعـض الثـوم المهـروس والقليـل مـن الفلفـل الأسـود.

فتحـت الجهـة العلويـة مـن الثلاجـة أخرجـت علبـة حفـظ طعـام تحتـوي عـلى بعـض مـن طبخـة طبختهـا منـذ مـدة ولم نسـتهلكها كلهـا فقمـت بتجميدهـا، تمعنـت فيهـا جيـدا باشـمئزاز كأننـي أرى فـأرا ميتـا، قمـت مبـاشرة بدسـها داخـل كيـس القمامـة، سـبق وقـرأت أن الأطعمـة المجمـدة هـي السـبب الرئيـسي للسرطانـات لكننـي لم أعـر المعلومـة أيـة أهميـة، تذكـرت أيضـا المعلبـات، ألقيـت بعلبـة الطماطـم التي لم أسـتعملها

إلا مرتين، هرعت إلى الخزانة التي أخبئ فيها مؤونتي، جمعت كل علب المصبرات التي صادفتها أمامي، وتخلصت منها دفعة واحدة كمن يتخلص من جرثومة معدية.

رباه! الأواني، كيف نسيت أمرها؟ أواني الألمنيوم أكبر مسبب للسرطان معلومة طفت فجأة على سطح عقلي، الملابس الداخلية المصنعة في الصين والتي لا يغزو سواها أسواقنا الجزائرية، أشعة الشمس، المنظفات، سيل من المعلومات يتماوج أمامي ويستهزئ بي، أنقذني منه طرق على الباب، عاد الطفلان دون أن أحزم أمري بشأن ماذا سأطعمها.

بعد أن جلبت الرضيع من عند المربية، وودعت الطفلين وهما يعودان إلى المدرسة بعد الظهر وبعد أن فرحا كثيرا بقرص البتيزا الذي طلبته لأجلهما، أخذت حماما مستعجلا واستلقيت على السرير أعيد تقليب أوراقي داخل رأسي، اتصل المدير ودون أن يسمح لي بالتفوه بكلمة طلب مني تسوية غياباتي المتتالية، لامني على إهمالي، أضاف أنه مراعاة للزمالة التي تربطنا منذ سنوات لم يكتب بي تقريرا للوظيف العمومي لكنه سيخصم من راتبي الأيام التي تغيبت فيها دون إذن.

أقفل الخط قبل أن أخبره أن غيابي سيطول كثيرا وأنه سيخصم بسخاء.

07

- لدينا عادة احتمالان، قالت الطبيبة.

الاحتمال الأول وهو حين نفقد الأمل من العلاج، يتوجّب علينا في هذه الحالة أن نقوم بترويض المرض فحسب عن طريق عدة جلسات من الكيماوي، ببساطة لأن المرض إلى هذا الحد يكون قد اغتصب أكثر من عضو في الجسم، ويكون استئصال عضو كالثدي وعدمه سواء.

ترويض المرض، الأمر أشبه بترويض حيوان مفترس وإخضاعه، حيوان هائج في البرية لن يتغلب عليه سوى قانون الغاب.

صمتت قليلا، وانتظرتني ريثما جمعت تشتتي وسألتها:

- طيب، والاحتمال الثاني؟

- سؤال مهم، عقبت. الاحتمال الثاني هو ما ساعدنا وضعك حاليا لحسن حظك على اللجوء إليه، المرض منحصر في الثدي الأيسر مبدئيا. أردت أن أتوقف عند كلمة مبدئيا لأني أحسست أنها فخ، لكنني تركتها تكمل. في هذه الحالة نستأصل الثدي كإجراء حتمي ثم نتوجه إلى العلاج الكيماوي.

حسنا، لقد اتضحت الرؤية، استئصال الثدي، فقدان أنوثتي، تشوه نفسيتي كل هذا من حسن حظي، يا لسخرية الحياة، متى سيسدل الستار على هذه المسرحية السوداوية الهزلية؟

- هـل اسـتوعبتِ وفهمـت يـا سـيدتي لمـاذا علينـا إجـراء العمليـة؟ سـألتني الطبيبـة.

- نعم فهمت.

كل الـذي يقولونـه فهمتـه، اسـتوعبته، حفظتـه عـن ظهـر قلـب، حفظتـه كـما أحفـظ اسـمي لكـثرة مـا تكـرر عـلى مسـامعي، لكـن الـذي لم اسـتوعبه هـو لمـاذا لا أحـد يريـد أن يفهمنـي؟

لمـاذا لا يريـد الجميـع -دون اسـتثناء- أن يسـتوعب أن الأمـر أكـبر مـن طاقتـي، يفـوق قـدرة تحمـلي.

- علاجـك، العمليـة الجراحيـة والكيـماوي سـيكونان في المشـفى العـام، مـن حسـن الحـظ أننـا نمتلـك داخـل ولايتنـا فرعـا خاصـا بعلـم الأورام والسرطانـات.

- من حسن الحظ، آه نعم.. شكرا جزيلا.

ودعتهـا حـين سـلمتني ملفـي الـذي أعـادت إليـه جميـع الصـور الإشـعاعية والفحوصـات، تمنـت لي العافيـة والسـلامة والشـفاء العاجـل.

ماذا لو كان كل هذا الذي أمر به وأعيشه مجرد حلم؟

يهـزني زوجـي في الصبـاح مـن كتفـي، يوقظنـي، يبتسـم لي ويقـول: لا شيء يسـتدعي الفـزع، كان مجـرد حلـم مزعـج!؟

أعـود إلى واقعـي الـذي يفنـد أمنيتـي. لم يكـن حلـما، إنـه كابـوس، أنـا داخـل كابـوس وبـدل أن أتجـه نحـو مفـسر للأحـلام عـلي التوجـه إلى

المستشفى لأكمل بقية الأحداث التي انطلقت شراراتها من فحص بسيط، علي أن أصارع، أن أقاتل حتى آخر رمق لأجل من يجلس على رصيف الأحداث مكبلا ويصلي لأن يمر كل شيء على ما يرام، لأجل أطفالي، زوجي، جدتي، «سماح» التي قررت طواعية مقاسمتي همي الضخم، نباتاتي التي اصفرت حزنا لحالي، حين تفقدتها آخر مرة كانت أشحب مني، ليس الإهمال فحسب ما جعلها تذبل، إنه الحزن، تقول جدتي «إن الأشياء تحزن تماما مثل الإنسان عندما تفقد صاحبها»، نباتاتي لم تفقدني بعد، لكنها فقدت وجودي.

كابوسي يحتويني، يكبلني بسلاسل حديدية وعلي أن أكون أقوى منه، أن أقطع جميع القيود التي يطوقني بها، عليّ أن أبسط أجنحتي وأحلق بعيدا عن الدمار.

-كم بقي لي من الوقت كي أعيشه؟

-أسبوع؟

-سيكون كافيا لأخرج في نزهة يتيمة مع عائلتي.

-شهر؟

-ربما سيكون مناسبا لأرتب بعض الأمور العالقة، سأقص شعري وأصبغه، سأغير ديكور البيت وأقيم حفلة صغيرة لعائلتي، أطبخ فيها لكل فرد ما يشتهي.

-سنة؟

-هل سأستطيع خلالها مراوغة الموت؟!

لماذا نخشى الموت بهذا القدر؟ أ لأنه المجهول؟ أم إضافة إلى أنه كذلك فإنه لم يحدث استثناء واحد، ليوم واحد، لشخص واحد، كي يتطوع ليعود بعد الموت وينقل لنا الوضع ومجريات الأحداث في العالم السفلي، رغم أن الكثير شحذ خياله لتأليف أحداث وحوادث تنتظرنا بمجرد إهالة التراب علينا.

القبر والظلمة التي يطوِّق بها ساكنيه، الأفاعي والدود المنتظرة لضيوفها بتوق وبمعدة خاوية ليس لها شغل تشغل به نفسها سوى التسلي بأجساد باردة متخشِّبة.

بالنسبة لمن يؤمن حقا بوجود عذاب وفيلم رعب داخل القبر هل يخشى أن يكون أسلوب التعذيب مروعا يفوق قدرة تحمل جسده الغرير؟

كثيرون تمادوا في مزج الخيال مع الواقع بكل أريحية مادام أنه لم يعد إلينا حتى الآن ذلك الاستثناء الواحد والوحيد كي يكذِّب أو يصادق على خيالهم وحقائقهم.

ماذا بعد الموت؟ الجزء الثاني منه، إذا اعتبرنا أن القبر مرحلة أولى يتوجب التعريج عليها قبل المرور إلى الجولة الثانية، حيث الخلود، حيث أنهار من العسل والخمر، مروج خضراء، أرواح نقية طاهرة، حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وفي المقابل نار وقودها الناس والحجارة، شرهة ومتفرغة لحرق الجلود ثم إعادة استبدالها بجلود جديدة وإعادة حرقها.

ربما لو طمأننا بشري واحد، ذلك الاستثناء، للمصير الذي ينتظرنا لكنا ذهبنا مع ملك الموت جنبا إلى جنب بخطى ثابتة وواثقة، ولكنه الخوف من المجهول!

ملفي بين يدي، أصبح أضخم من أن تحمله الحقيبة المعلقة على كتفي، الوجهة محددة، مضبوطة، المستشفى الحكومي، مصلحة طب الأورام السرطانية، الطابق الثاني، إلى اليمين.

استقبلتني السكرتيرة بوجه بشوش، تنبعث منها رائحة الماكياج الرخيص الذي تقتنيه -ولا شك- من الطاولات الممدة على الأرصفة والتي عملت الدولة كل ما في وسعها لتحاربها لكن هذا الشعب أكثر دهاء في مراوغة البؤس. ربما كانت تعرف أن من يأتي هنا قد لا يرى ضحكتها المصفرة كثيرا أو قد لا يراها مرة أخرى أبدا.

كان المكان أكثر اصفرارا من ضحكتها ومن وجوه الجالسين المترقبين، رنين هاتف أحدهم لا يتوقف، كلمة «شيميو» تتكرر عند كل جملة، رجل يتحدث إلى مجاورته: لا تخافي، أختي شفيت بعد العلاج. هل سيتساقط شعري عند أول جلسة علاج؟ سألت إحداهن، لا أحد سيموت ناقص عمر! أجابت أخرى على سؤال لم يُطرح، كانت تعصر منديلا ورقيا بين يديها.. مريضة تسدل شالها الشتوي بإحكام على الجهة اليمنى من صدرها، كل دقيقة تعيد ضبطه حتى وإن لم يتحرك من مكانه، ما يمرض غير حبيب ربي، تعيد صاحبة التجاعيد الوفيرة، الموت واحد والأسباب عدة قالت صاحبة الشال وأعادت ضبطه بتوتر على الجهة اليمنى من صدرها، فتشت في الفراغ عن ثقب يمكنه أن

يحتويني، عن تشقق في الحائط يطبق علي، انتظرت الأرض كي تنشق وتبتلعنا دفعة واحدة لكن هذا لن يحدث، موعد القيامة لا يزال منتظرا، لم يخرج «يأجوج وماجوج» بعد، لم يظهر المهدي المنتظر، لم ينزل «عيسى» من سمائه، لم يظهر المسيح الدجال ذو العين الواحدة الذي سيلتهمنا الواحد تلو الآخر، حتى فلسطين لم تستقل بعد بل أعلن» ترامب» مؤخرا أن «القدس» عاصمة الكيان الصهيوني، لم تشرق الشمس هذه الصبيحة من مغربها وفوق هذا ليست الجمعة.

هاتف يرن من جديد، رائحة المنظفات تنبعث من الردهة، ضحكة ماجنة أطلقتها إحداهن من مكان لم أستطع تخمينه، امرأة تمسح كل ثانية سيل دموع لا يريد أن يتوقف، صراخ من الحجرة المقابلة، تشرح كل واحدة لأخرى موقع التصلب بالضبط وشكل الورم، تسأل إحداهن: هل تتحرك؟ تجيب أخرى، نعم تتحرك وقد أخبروني أن التي تتحرك مجرد «ولْسيس».. ليس « هذاك المرض»، الغريق يتعلق بقشة، وإن لم يجدها صنعها من وهمه. تنتفض أخرى بهدوء: « لا، إنه هو، هو» تصرع قشة الأمل على أرض اليقين.

رفعت رأسي إلى الحائط حيث أُلصِقت ورقة بحجم A4 ، زيّنت حواشيها بزخرفة خضراء كُتِبَ عليها بخط يبدو جليا ومقروءا حتى لضعاف البصر.

Quand la vie te donne une centaine de raisons de pleurer, montre- lui que tu as mille raisons de sourire.

ماذا لدي لأبتسم؟ من أين سأشحذ ابتسامة كي أمتثل للنصيحة القابعة أمام نظري؟

بكل صفاقة يطلبون منك أن تبتسم، أن تكون صابرا، محتسبا، راضيا بما قسمه لك الله الذي اختارك من بين الآلاف، لا بل الملايين ليختبرك ويختبر متانة قشة الصبر التي تستند عليها.

أبتَسم، كم مرة ترددت على مسامعي هذه العبارة؟ أبتسم، لأبدو سعيدة وبريئة في الصورة الجماعية الملتقطة أيام المدرسة، أبتسم لأبدو قوية وفخورة وأنا أحصل على شهادتي الجامعية، لأبتسم أكثر لأبدو الأسعد على الإطلاق وأنا أمسك يد زوجي يوم زفافنا، أبتسم وأنا أحضن طفلي الأول، وأبتسم أكثر وأنا أقبل ابنتي ووالدها يطوقنا بذراعيه، أبتسم لجميع من قدمت لهم الكتب حين أتوا لاستعارتها أو لإعادتها، أبتسم لأخبئ خوفي، ارتباكي، أبتسم سعادة، محاباة، نفاقا، شماتة، لكن أن أبتسم لأجل الموت، طز!

على الجانب الآخر، عن يميني تحديدا، صورة لفتاة صغيرة لم تتعد العشر سنوات -حسبما قدرت- شاحبة الوجه بعينين غائرتين داخل رأسها الأصلع، ترتدي قميصا بنفسجيا وتبتسم ببراءة مؤذية للمشاعر، كتب تحت الصورة « إن كنت تراني جميلة رغم مرضي، ادع لي بالشفاء وجميع مرضى السرطان المسلمين»

ليتني أمتلك الطاقة الكافية التي تمكنني من تحريك لساني والدعاء لها، ولمرضى المسلمين، وللمسيحيين والبوذيين، وحتى للملحدين الذين لا يملكون من يدعو لهم، لقد تحجرت فجأة.

شعرت من جديد بإحساس اليتم الذي يباغتني بين الحين والآخر، أردت في هذه اللحظات بالذات أن أختبئ خلف أمي، أن تمسك يدي وتشرح للطبيب ألمي بالتفصيل، مثلما تفعل جميع الأمهات، غير أنني كنت مجرد كتلة رخوة منسية على قارعة طريق مكتظ أين كنت الوحيدة غير المرئية، اختنقت وأنا أفكر في جميع الأشياء التي لم أقلها وتلك التي لم أفعلها.

الحمد لله على كل حال، قالت التي تجلس إلى جانبي وكأنها كانت تضع كرسيا وتقرأ السبورة التي أكتب عليها داخلي، أكملت حديثها هامسة: جارنا لا يملك أي مرض لقد مات قبل يومين، سكتة قلبية، حفزت الآخرين ليقصوا قصصا متشابهة ولو كاذبة، عن أطفال رضع ولدوا مشوهين، عن حوادث مرور جعلت الضحايا يبترون أكثر من عضو، عن الحرب في «سوريا» والتفجيرات في «العراق»، عن اللاجئين الماليين، جُمع الألم في برميل واحد وارتشف الجميع الكأس التي جعلته حامدا مستغفرا، راضيا محتسبا، ثم فجأة ساد الصمت المطبق وخيَّمَ الاصفرار حين نادت الممرضة على المرضى من بطاقاتهم وأضافت أن الدكتور ينتظر لمباشرة العلاج الكيماوي.

الأربعيني الذي يجاورني على يميني بالتحديد أخرج من جيبه كيسا، رجه برفق، وبخفة رأيت في يده قصاصة ورق شفاف اقتطعها من شيء يشبه كتيب صغير جدا، أصغر من راحة اليد، «الماصة» الكتاب الأكثر مبيعا في الجزائر كما يتهكم بعضهم، ملأها بالتبغ لفها بعصبية وتوتر بلفة محكمة، أطبق عليها بين السبابة والإبهام،

رمقها بنظرة خاطفة للتأكد من مدى إحكامه، أشاح بوجهه عني ربما احتراما لي، وبخفة منه لم ألحظ كيف وضع الشمة تحت شفته العلوية، لم تزعجني الرائحة، بل تغاضى أنفي عن التقاطها تواطؤا مع معدتي، ثم استدار اتجاهي وهمس لي: «الحمد لله أن أبي لم يرهقوه بالكيماوي» أحيانا نحمد الله على حزن أخف وألم أرحم من حزن وألم غيرنا، المقارنات في مثل هذه الحالات تريح حتى ولو كنا متضررين، نحمد الله بمجرد أن نعرف أن مأساتنا والضرر الذي ألحقته بنا أخفَّ وطأة من مأساة وضرر الآخرين.

وكأنه قرأ من نظراتي الحائرة أن لا خبرة لي في الميدان.. أضاف « كبير في السن، الطبيب قال الدواء كاف في مثل عمره، «خلاياه عجوز مثله» أضاف بتهكم لا يخلو من لمسة حزن.

الجميع هنا أتى لأجل الكيمياوي الذي لا يعنيني الآن، مع كل مريض مرافق، في الغالب ابنة. كل ما يشغل بالي مجيء طبيب المشفى الذي سيصادق على إجراء العملية.

بعد أن فاق انتظاري الساعة والنصف، في بلد يعتبر الوقت أرخص ما يملكه الإنسان وقبله كرامته، أجلس قبالة الطبيب كاشفة له حال وضعي من خلال الملف الذي وضعته قبالته على مكتبه. ألقى عليه نظرة، على الفحوصات التي طُلِب مني إجراؤها، كان في كل مرة يقلب ورقة يحرك فيها رأسه.

أعـاد بأصابعـه الرقيقـة وبطريقـة هادئـة جميـع الأوراق داخـل الحافظـة، بعـد أن سـجل لديـه جميـع المعلومـات وقـال أخـيرا: فحـص أخـير سـيدتي وننهـي مـن جميـع الإجـراءات.

- فحـص أخـير؟ حـواسي أصبحـت طفلـة قـاصر، تلميـذ بليـد، رجـل أخـرق.

- نعم فحص بسيط سيدتي سنجريه هنا رفقة الطبيب الجراح.

شـكل أرقامـا مختلفـة عـلى الهاتـف الأرضي، طلـب اسـما سـبقه بلقـب الدكتـور، وأخـبره أنـه ينتظـره في مكتبـه لأمـر هـام.

بعدمـا تمـت عمليـة فحـصي مـن جديـد مـن قبـل الطبيبـين، وبعـد تبادلهـما لكلـمات وعبـارات فرنسـية التقطـت بعضهـا وأهملـت الكثـير منهـا، قـال أخـيرا أحدهـما، عرفـت أنـه الجـراح رغـم أننـي كنـت منشـغلة بتعديـل هندامي..عرفتـه مـن صوتـه: سـنجري العمليـة قريبـا، لكـن قبلهـا هنـاك تحاليـل أخـرى علينـا إجراؤهـا.

كنـت أومـئ بـرأسي، أضـاف أنـه عـليَّ زيارتـه في الغـد لـدى المصلحـة المجـاورة وأشـار بيـده كي يوضِّـح لي المـكان.

سـلمني الملـف وأضـاف أننـا سـنلتقي قريبـاً، وابتسـم بطيبـة ولطـف، فأضفـت «إن شـاء اللـه» مغلفـة بالأمـل.

08

بعـد أن تجاوزنـا بوابـة المشـفى الرئيسـية ركـن زوجـي السـيارة عنـد مدخـل البنايـة التـي تضـمُّ مصلحـة طـب الأورام وفـرع الجراحـة، السـيارة مـن نـوع «ميكـرا» لازلنـا ندفـع أقسـاطها منـذ خمـس سـنوات.

عقربـا السـاعة الآن متطابقـان عنـد حـدود التاسـعة صباحـا، كنـت مطمئنـة بعـض الـشيء لأننـي تركـت أطفـالي تحـت رعايـة جدتهـم التـي حـضرت صبيحـة هـذا اليـوم خصيصـا لتعتنـي بهـم وبابنهـا ريثـما أعـود إلى المنـزل. هاتفتهـا عـدة مـرات منـذ غادرنـا البيـت، سـألتها إن كان الرضيـع نائمـا، أعـدت تنبيههـا إلى موعـد دوائـه، ذكرتهـا أن «آدم» و»ماريـا» يعودان في حـدود الحاديـة عـشرة والنصـف وأن الأكل متوفـر في الثلاجـة، تقريبـا كل الجمـل التـي سـبق وقلتهـا قبـل خروجـي مـن المنـزل.

كانـت قـد وصلـت دقائـق فقـط قبـل انصرافنـا مـن البيـت، سـلمنا عليهـا ورحبنـا بهـا وحـين انشـغل زوجـي بالتأكـد مـن محتويـات الملـف الأصفـر الـذي يحتـوي جميـع الفحوصـات التـي أجريتهـا، اغتنمـت وقـت انتظـاره كي أخبرهـا أن رضاعـة الطفـل جاهـزة، وأنَّـه قـد تعـوَّد عليهـا ولـن يزعجهـا بكـثرة بكائـه، تضامنـت معـي هـذه المـرة وقالـت: «لا تقلقـي، كان معـك حـق أن قمـت بفطامـه، ليهـا، ليهـا».

كانـت كلماتهـا مشـجعة عـلى عكـس المـرة الماضيـة التـي أبلغتهـا فيهـا أننـي قمـت بفطامـه بعدمـا اكتشـفت المـرض وانصياعـا لمـا طلبتـه منـي الطبيبـة كأول إجـراء احـترازي، تنهـدت يومهـا وأضافـت أنهـا أرضعـت ابنهـا أكـثر مـن حولـين، واسترسـلت مستشـهدة بقولـه - سـبحانه وتعـالى-: «وَالْوَالِـدَاتُ يُرْضِعْـنَ أَوْلَادَهُـنَّ حَوْلَـيْنِ كَامِلَـيْنِ» الآيـة 233 مـن سـورة البقـرة.

يومئـذ تدخـل زوجـي وأكمـل الآيـة التـي لم يكـن في نيتهـا أصـلا إكمالهـا: « لِمَـنْ أَرَادَ أَنْ يُتِـمَّ الرَّضَاعَـةَ» وأنـت تعرفـين الظـروف يـا أمـي، الأمـر خـارج عـن إرادتهـا.

مشـكلتنا التـي نتجاهلهـا تكمـن في أننـا لا نتفـوه سـوى بمـا يـروق لنـا ضاربـين بمشـاعر الآخريـن عـرض الحائـط، ننتقـي الآيـات التـي تـأتي عـلى مقـاس مـا نريـد قولـه كي نحاجـج بهـا، نختـار الأحاديـث النبويـة الضعيفـة والمغلوطـة فقـط لكونهـا في صفنـا.

« قدر الله وما شاء فعل» ...أضافت لتعتذر ربما.

قبلتنـي وأنـا أودعهـا عنـد البـاب، تمنـت لي الشـفاء العاجـل، امتـلأت عيناهـا بالدمـوع وهـي تتفحـص سـحنتي، في حـين أمطـرت دموعهـا عندمـا تطلعـت إلى وجـه ابنهـا الـذي قـال بنـبرة حنونـة متوسـلة: تهـلايْ يمَّـا!

انشـغل زوجـي بتقديـم ملفـي للطبيـب، كان يـروح ويجـيء في الردهة رفقـة سـماح التـي تركـت قسـم الـولادة حيـث تعمـل وصعـدت قسـم العمليـات حيـث أنـا، خصيصـا لأجـلي، لتكـون معـي.

كنت أنظر إليهما منشغلين بوضعي، تساءلت كيف أنني لم أنتبه من قبل إلى أنهما أجمل هدية خصني بها الله، بعض الأشخاص هدايا غالية يعجز المرء عن تحديد ثمنها.

بعد أن أنهيا جميع المعاملات رافقتنا ممرضة عشرينية إلى الغرفة حيث سريري، ساعدني هذه المرة أيضا في فتح الحقيبة التي أحضرناها من المنزل وتغطية السرير بغطاء أزرق، أخفينا من خلاله معالم غطاء المشفى المصفر، ثم قام بتغطية الوسادة بغطاء من نفس نوع القماش واللون ، أخرج المنشفة وضعها عند رأسي، وأخرج البيجامة التي سأرتديها و وضعها إلى جانبي أيضاً، فرد البطانية على السرير، وقبل أن ينصرف سألني عما تتوق إليه نفسي كي يحضره لي على الغداء رغم أن الوقت أصبح عصرا، ابتسمت وأخبرته أنني لا أشعر بالجوع، قبل أن ينصرف جلس قليلا عند طرف السرير يتأملني، كنت على يقين أنه يفتش داخله عن كلمات من شأنها أن تجعلني أكثر قوة فأشد بها عزيمتي، لكنه اختار في النهاية وكنتيجة حاسمة الفرار إلى الصمت باعتباره الأريح كالعادة.

مشكلة الجزائري أنه لا يجيد التعبير عن أحاسيسه النبيلة، معاق في ترجمة المشاعر، ويصبح أكثر بلادة خلال الأوقات العصيبة وعند أهم المواقف التي تستوجب أن تُستَفزَّ مشاعره الطيبة وتخرج دفعة واحدة.

حين هم بالانصراف وبنظرات توسل طلبت منه أن يهتم بالأطفال. قال لا تقلقي وأحسست أنها من أصدق جمل الطمأنة التي تفوه بها على الإطلاق.

في الحجرة التي سأمضي فيها بقية اليوم وأبيت فيها ليلتي بعيدا عن عائلتي، توجد ثلاث أسرة متجاورة، وبين كل منها طاولة صغيرة، السرير الذي يفصل بيني وبين المريضة الأخرى شاغر، أجرت عمليتها وتنتظر الغد كي تنصرف، أخبرتني أيضا أن صاحبة السرير الشاغر قد انصرفت البارحة. كانت هذه المعلومات التي زودتني بها هي أول حديث فتح بيننا، لم يكن لي في البداية أي رغبة في الحديث ثم وجدتني بحت لها بكل شيء بدءا بأسماء أطفالي وصولا إلى اليوم الذي وهبتني فيه أمي الحياة ووهبتها الموت.

سيكون كل شيء على ما يرام، لا تخافي، طمأنتني بنبرة طيبة، كلماتها، نظراتها، ابتسامتها كلها تبعث السكينة في النفس.

لم تحدثني عن نفسها لكنها قالت بنفس الطيبة: الله لا ينسى عباده، فقط ثقي بقدرته.

تحدثت طويلا، جعلت انتباهي ينساب مع كل كلمة تخرج من بين شفتيها، قصت علي قصة إحداهن، قالت أن زوجها طلقها منذ سنوات، حين أُغلق باب الود والتفاهم بينهما، لكنه منذ أيام فُتِح باب العودة، لقد عاد ذات السقف يضم حبهما الغابر، لقد تجاوز جميع المطبات، وقفز على كل الخلافات، حين علم أنها أصيبت بالسرطان، لقد صَعُبَ عليه أن لا يكون إلى جانبها.

كانت كلماتها الوديعة تتسرب إلى أذني تشهد عليها الإضاءة الهادئة.

- وكان يعلم أنه سيتم تجريدها من أنوثتها؟

- بالطبع كان يعي كل ما ستمر به.

- محظوظة، تمتمتُ.

- نعم، إنني جد محظوظة به. ابن أصل.

تتحدث عن نفسها إذن، قلت هذه المرة دون أن أجعلها تسمع حرفا مما تفوهت به.

لقد أصبحت نزيلة هذا المشفى، تم فتح ملف خاص باسمي، طرح علي الطبيب عدة أسئلة:

- اسمك؟

- «ياسمينة» أجبت. كان خطأ والدي أن أطلقا عليا اسما لشيء مفرد هذا إن كانا قد جلسا جلسة رومانسية في فناء منزل جدي الكبير الذي لم يكونا يمتلكان منه سوى غرفة واحدة، وخططا لانتقاء اسم لي كما أتمنى دائما، في الغالب قال أحدهما للآخر: « كي يزيدْ نسموه بوزيدْ».

كان يجدر بهما إسقاط التاء آخر الكلمة ليصبح اسمي «ياسمين»، كلما ماتت ياسمينة استخلفتها ياسمينة جديدة من الياسمين السخي الذي لا يزول.

- لقبك؟

لا أدري أي لقب يتطوع ليحمل وزر سيدة مثلي، لقب عائلتي الذي ولدت ليلتصق بي، أم لقب زوجي الذي أصبح لقبي بصورة آلية في جميع الأوراق الحكومية، في البداية رفضت رفضا قاطعا، لكن مع مرور الزمن لم تعد هذه الشكليات تهمني، سواء لقب الأب أو الزوج كلاهما كنت مجبرة على حملهما، والآن أريد رص حروف أي لقب كان لأنهي قائمة الأسئلة..

عمرك؟

عمري؟ أردت أن أوجه له السؤال الممل الذي يطرحه جميع المرضى:

- كم بقي من العمر كي أعطيك إجابة حاسمة؟

أطرق ينتظر إجابتي، ضغطت على أسناني:

- أربعون سنة.

- وضعك الاجتماعي، عدد الأطفال، وظيفتك؟

- موظفة وزوجي موظف هو الآخر ولدينا ثلاثة أطفال. لو كان الوضع مختلف لابتسمت وأخبرته أن البكر اسمه «آدم»، أسميته بهذا الاسم لأنه من التربة الحمراء أو الطين الأحمر، وكل من أصله تراب سيزهر لا محالة، ثم سأخبره أن ابنتي الوسطى اسمها «ماريا» تيمنا

بالقديسة «مريم» - عليها السلام- الرضيع «محمد» أسمته جدته على اسم فقيدها، زوجها، لم أشأ أن أكسر بخاطرها بعدما فعلت مع «آدم».

جيد، قال بصوت يكاد يسمع حين أنهى جميع الأسئلة، رأيت نفسي في حضرته تلميذة بليدة تجيب بطريقة من يحفظ وليس من يفهم، بطريقة التلميذ الذي يبتلع الحروف بغير هضم ليتقيأها على ورقة معلمه يوم الامتحان دون الحاجة إلى الاحتفاظ بها، أردت أن أختم الدرس مثلما يختمه عادة أحد التلاميذ بسؤال مريخي: لماذا أموت الآن؟

فكرت بصوت مرتفع، تطلَّع إليَّ بنظرة وهن، تلك النظرة التي يتمنى المرء دائما أن تنشق الأرض وتبتلعه قبل أن يتلقى سؤالا يكون عاجزا عن الإجابة عنه.

كان بإمكانه أن يرد على هذا السؤال بسؤال ساذج مماثل له، انطلاقا من مبدأ العين بالعين والبادئ بطرح الأسئلة أسذج، لكنه ابتسم بهدوء وقال: مشيئة الله!

ليته كان أكثر ذكاءً وقال: لا أحد منّا ...

فتحت عيني صباح اليوم التالي على سرير غير سريري، وغرفة لا تمت بصلة لغرفتي، إنها أحدى غرف المشفى التي وُجدت لتذكرني بمصيري، ساعدتها «سماح» التي كانت أول الوافدين في مهمة التذكير وساعدتني على جمع أغراضي داخل الحقيبة في حين انشغلت إحدى

الممرضات بنزع حقنة المحلول التي كنت قد قضيت بها الليلة كاملة من يدي، رفعت نظري إلى كيس المحلول المعلق بالقضيب، لقد نفد.

راحت «سماح» تتحدث دون توقف، سألتني عن حالي وكيف قضيت الليلة، وطمأنتني أن كل شيء سيكون بخير، ابتسمت ثم أخبرتني أن زوجي في الخارج ينتظر مضطرب المزاج، همست بخبث: لا يزال مجنونا بحبك، ابتسمت لأجل حبه خصيصا وليس لأجل كلمات سماح.

في غرفة منفصلة تجردت من ثيابي، ونزعت معها الكثير من التساؤلات، رفعت عيني إلى السماء، لم أقل شيئا، لم أبتهل بأي دعاء، تركت الأمر كله لله.. لقد أخبرنا أنه يعلم السر وما يخفى، سبحانه ليس بحاجة للكثير من الشرح أو التفصيل.

حتى الهواجس والأفكار التي راودتني منذ أيام وحتى ليلة البارحة على سرير المشفى لم يعد لها أي أثر، أقف كالمخدرة قبل حتى أن يتم تخديري.

نسيتِ ملقط الشعر سيدتي، قالت الممرضة وهي تتفحصني، تتأكد إن كنت عارية كما يجب ومجرّدة كليا من كل غرض غريب عن جسدي.

مددت يدي المخدرة إلى شعري، سحبت الملقط ووضعته على كومة ملابسي التي انتزعتها.

لفتني في ثوب أبيض يشبه الإزار، لأول مرة أرى الأبيض مقززا لهذا الحد، لا يمت بصلة إلى لون أول زهرة أهداني إياها زوجي، وليس هو لون الثلج الذي كنت أركض تحت ندفاته دون تعب وأهرع لجدتي حين تتيبس أطرافي لأجد قدر ماء دافئ على النار تطلب مني أن أدخل يدي فيه كي يتسلل الدفء إلى جسدي النحيل، إنه أبيض مقيت.

خطواتي تتبع خطوات الممرضة المتجهة نحو قاعة العمليات، حين دلفنا الباب وصرنا في الداخل، أشارت إلي أن أستقلي على سرير جلدي أسود، امتثلت لطلبها، نزعت عني الإزار الأبيض واستبدلته بآخر أخضر ذي كمين، دثرت به عريي.

ثبت عيني في اللاشيء، كنت بين الحين والآخر ألمح خيالها يذهب ويأتي في حركة شبه آلية، لم أتفوه أمامها بكلمة، لم أبك، ولم أستجد عطفها.

لست الوحيدة التي استلقت على هذا السرير. التفكير بالأمر أشعرني بالمزيد من الخدر، لازال خيال الممرضة الهادئ يرتب ويعيد ترتيب أدوات الطبيب الجراح، لم تلتف اتجاهي، لم تحاول مواساتي وقد شكّرَتها دموعي المتحجرة على صنيعها هذا، لم تكلف نفسها عناء الابتسام أو مدح الطبيب والثناء على مهاراته أمامي عل معنوياتي ترتفع، لم تخبرني أنه من أبرع الجرّاحين، وأنه المرغوب من قِبلِ جميع المرضى كما سردت ممرضة على مريض في إحدى الدول التي تقع في الجزء المضيء من الكرة الأرضية، الممرضة كانت تقف بجانب

سريـر أحـد المـرضى ومنكفئـة عـلى ترتيـب الأزهـار في المزهريـة، اسـتغلت قربهـا مـن المريـض وبعـد أخـذ ورد أخبرتـه أنهـا تعـرف الطبيـب الـذي سـيجري لـه العمليـة وأنـه مـن أمهـر أطبـاء العـالم وأن الشـفاء عـلى يديـه قطعـي لا يقبـل ذرة شـك، كانـت في الحقيقـة طبيبـة نفسـية انتحلـت صفـة ممرضـة، جـيء بهـا أو وُظِّفـت خصيصـا لتشـحن نفسـية المريـض ايجابيـا وتصـدّ قلقـه وتوتـره قبـل أن يقـترب منـه الجـزار اللطيـف. هنـا أيضـا لا أدري مـدى صـدق هـذه القصـة فقـد اختلطـت علينـا القصـص وشـحذ كل ذي خيـال خيالـه كي يهيّـج عواطفنـا، ليفطـر قلوبنـا أو ليجعلنـا نـشرع أفواهنـا مـن الدهشـة، كل الـذي أعرفـه أننـي في الجـزء المظلـم مـن الكـرة الأرضيـة وأن مثـل هـذه القصـص لا تختلـف عـن خرافـة الخـلّ الوفي عنـد العـرب، وأن الحالـة النفسـية للكائـن الحـي الـذي يطلـق عليـه اسـم إنسـان لا تعنـي أحـدا.

- لا تجزعـي، جـل الأمـور تحـت السـيطرة، سـيتم اسـتئصال الثـدي وبعدهـا سـيكون كل شيء عـلى مـا يـرام، قـال صاحـب الأصابـع الرشـيقة.

ألقيـت نظـرة متفحصـة عـلى الممرضتـين المسـاعدتين، مكتملتـي الأنوثـة، إحداهـما تملـك فائـض أنوثـة عملـت مـا في وسـعها لتجعلـه مرئيـا حتـى للأعمـى.

- لا تخـافي إن الأمـر بسـيط جـدا، العمليـة سـتكون أيـسر وأسـهل مـما تتصوريـن سـيدتي، ابتسـم الطبيـب مـن جديـد.

ومـن الطريقـة التـي كان يتحـدث بهـا إلي وتصـادق عليهـا وصيفتـاه بإيماءاتهـما. خلتـه سـيزيل مخـاط أنفـي بمنديـل ورقـي ناعـم أو سـيقوم

عـلى الأغلـب بتقليـم أظافـري لا غـير، لم يسـتطع أحـد كـما لـن يسـتطيع أبـدا مهـما بحـث ونقَّـب في قواميـس العـالم كلـه أن يجـد كلمـة واحـدة لهـا القـدرة عـلى التعبـير ولا عـلى شرح وجـع اسـتئصال أنوثـة أيـة امـرأة، كيفـما كان وضعهـا ومهـما كانـت أرقـام سـنوات حياتهـا.

كانـت قطـرات المحلـول تنـزل بتـؤدة مـن كيسـها باتجـاه الحقنـة المثبتـة عنـد أحـد شرايـين يـدي اليمنـى، أُلبِسـتُ ثيـابي بشـكل فوضـوي، مـا زال بعـض الخـدر يسـتحوذ عـلى جسـدي، الجفـاف يكتسـح حلقـي، حاولـت تغيـير وضعيـة نومـي لكـن سرعـان مـا تراجعـت حـين وخزتنـي آلام كتفـي بشـكل لا يطـاق، كنـت أحـس بالضعـف والوهـن، إحسـاس آخر انتابنـي حـين انتبهـت إلى الفـراغ الرهيـب عـلى جهتـي اليـسرى، شـعور يسـتعصى وصفـه في كلـمات أو جمـل، عـلى الأغلـب لا توجـد بعـد كلمـة قـادرة عـلى وصفـه!

ومـع كل هـذا فـإن وجـودي خـارج غرفـة العنايـة المركـزة ورؤيتـي لعائلتـي تحديـدا أعـاد لي بعـض الراحـة عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت ممزوجـة بالكثـير مـن الحـسرة والحـزن، آلمتنـي رؤيـة طفـليّ، «آدم وماريـا»، آلمنـي عـدم تمكنـي مـن رؤيـة الرضيـع الـذي يعلـم اللـه وحـده كيـف هـو وضعـه الآن. اجتـزت أول مطبـة، قفـزت عـلى أعظـم حاجـز، أجريـت العمليـة، جـردوني مـن أنوثتـي وتركـوني ملقـاة هنـا أتعـافى.

كنـت مسـتلقية عـلى السريـر الحديـدي ذي الفـراش الأبيـض، أتدثـر بغطـاء أبيـض الأصـل لكنـه يميـل لبعـض الاصفـرار تشـوبه بعـض البقـع، بقـع يمكـن القـول أنهـا آثـار لآلام جسـدية ونفسـية، لدمـوع وابتهـالات، لسـخط وتوبـة، لأشـخاص مـروا مـن هنـا.

أخفيت ألمي بابتسامة اعتدت أن أخبئها دوما للمواقف التي تخونني فيها الكلمات ووزعتها على الجميع، زوجي الذي كان يقف بالقرب من رأسي داسًّا يديه في جيبي بنطاله الواضح للأعمى أنه لم يغيره منذ مدة، بدت سحنته قاتمة جدا، انتبهت للتو إلى لحيته التي تركها تعربد على ملامحه الدمثة لا أدري منذ متى حدثت معه كل هذه التطورات، زري قميصه العلويين موصولين بثقبيهما بطريقة متعاكسة، بدت عشوائية جدا، كانت عيناه حمراوين، يبدو أنهما أدمعتا بسخاء ليلة البارحة التي قضيتها هنا في العناية المشددة بعد إجراء العملية وقضاها هناك رفقة العناية الإلهية، رنا إلي بابتسامة عذبة وقال بصوته الرخيم بعد أن سحب نفسا عميقا: « الحمد لله على سلامتك، اشتقنا إليك».

إلى جانبه يقف «آدم» الذي قبّل جبيني ووجنتي وأخذت يده الصغيرة تعبث بشعر رأسي المبعثر على الوسادة ولكن بمجرد أن رفعت نظري إليه وتقاطعت نظراتنا، أخفض عينيه وقال أنه أخذ الإذن من معلمته كي يأتي لزيارتي، كان خائفا من أن أعاقبه على غيابه فأعطاني المبرر قبل أن أطلبه، وما كنت لأطلبه في مثل ظرفي هذا أبدا. حاول أن يخفي دموعه لكنها كانت أقوى من عينيه البريئتين.

- لا تبكِ، الرجال لا يبكون. قال والده وهو يمسح عن خديه الصغيرين دموعه السخية.

مساكين هؤلاء الرجال، مثيرون للشفقة حين يصادر حقهم في التنفيس عن مشاعرهم النفسية، حين يضطرون للتواري عن الأنظار

فقـط لـذرف الدمـوع وطـرد السـموم التـي تطبـق عـلى أنفاسـهم.

حـق البـكاء، أهـم حـق يجـب أن يطالب بـه الرجـال لعلاج تشـوهاتهم النفسـية.. مـن ذا الـذي قـرن ضعـف الشـخصية بالوسـيلة الوحيـدة التـي تختـصر كل مـا يسـتعصى وصفـه أو التعبـير عنـه، بالبـكاء؟

«ماريـا» أمـيرة البيـت، الفتـاة المدللـة بـدت بشـكل مغايـر تمامـا، كانـت جالسـة بقـربي عـلى السريـر تلعـب بيـدي اليمنـى التـي نفـذت مـن الحقنـة والمحلـول المعلـق عكـس الجهـة اليـسرى ككل، قبلـت جبينـي كثـيرا حتـى أحدثـت في قلبـي شـعورا آلمنـي بقـوة لكـن آلمنـي أكـثر مـن كل مـا سـبق رؤيـة شـعرها المنكـوش وهيأتهـا وهـي ترتـدي معطفهـا بشـكل مقلـوب، رؤيتهـم بهـذا الشـكل قطَّعـت نيـاط قلبـي، لم أكـن موجـودة في البيـت أثنـاء اسـتعدادهم للخـروج كي أنتبـه لهنـدام كل منهـم. لمـت نفـسي كي أعطيهـم المـبرر.

09

بعد أربع وعشرين ساعة أمضيتها تحت الرعاية الطبية بشرني الطبيب أن كل الأمور بخير وأنه أصبح بإمكاني العودة إلى البيت، الأمور بخير، لكنني أحس أنني لست بخير. طلب مني أيضا أن أخلد للراحة التامة لمدة أسبوع على الأقل، أن لا أشغل بالي وأن أريح نفسيتي وأن أهتم بتغذية جسدي كي لا أستغرق وقتا طويلا في التماثل للشفاء، زوجي يبتسم بطيبة لكلمات الطبيب ويحرك رأسه صعودا ونزولا مزكيا كل كلمة يتفوه بها. كما وصف لي بعض الأدوية المسكنة للآلام والخافضة لدرجة الحرارة في حال ارتفاعها. تمنى لي الشفاء العاجل وانصرف لإكمال تفقده لباقي مرضاه في حين تكفل زوجي بجمع أغراضي ومساعدتي على ضبط هندامي قبل أن يمسك بإحدى يديه يدي ويمسك بيده الأخرى الحقيبة وننصرف.

كنت سأمتثل لأوامر الطبيب حرفيا وأتقيد بجميع نصائحه لولا أن الذي كان ينتظرني لم يكن على البال.

أشخاص يظهرون ويختفون، أصوات تعلو وتخفت، أحداث تطغى وتنزوي، هكذا أضحى منزلي، خشبة مسرح، أقارب وأقارب الأقارب آثروا تسجيل الأجر عند الله وعيادتي، كان كل زائر يدلي بدلوه، يتحجج بعضهم بزيارتي كي يتسنى لهم الاجتماع بالبعض الآخر، ابنة عمي التي جاءت لزيارتي عند الظهر رفقة ثلاثة أطفال لامتني كثيرا،

جلست قبالتي وبدأت ترغي وتزبد وتركت أطفالها الذين لم يسلم منهم غرضٌ في البيت يسرحون ويمرحون، سكبوا قارورة المشروب على السجاد، فتحوا حنفية الحمام وتركوا المياه تنسكب حتى وصلت الردهة، ترَكتهم يأخذون راحتهم بالكامل، دون أن تخزها إنسانيتها ولو وخزة بسيطة. وبالرغم من أنه لم يكن بيني وبينها أدنى ود من قبل ولا حتى مؤخرا إلا أن نظرة اللوم لم تفارق تفاصيل وجهها وهي تسألني في كل مرة معاتبة: وأنا آخر من يعلم؟

بدا الأمر كأنني أقمت مأدبة فرح ضخمة واستثنيتها من العزيمة.

طيلة هذه الأيام كانت أم زوجي تتكفل باستقبال الضيوف الذين لا يملكون ساعات لضبط وقت الزيارات المناسب، لا بل لا يملكون ذوقا من الأساس لينتبهوا لأمر الوقت، بدا الإرهاق مكتسحا سحنتها، كانت تساعدني بالاعتناء بالرضيع وتحضير الأكل، وقص الكثير من القصص الخرافية على «آدم» و«ماريا» الذين كانا أكثر شخصين مرتاحين لوجودها.

فقدت نهدي، فقدت أنوثتي، فقدت توازني، أنكمش على نفسي حين أهم بتغيير ملابسي، أتفادى وجود أي مرآة تعكس عريي، أتحاشى النظر إلى خيبتي، أصبحت الكلمات ضخمة داخل فمي، لم يعد لها القدرة على تخطي حدود شفتي مهما حاول لساني قذفها نحو الخارج للتخلص من ثقلها، حتى أذني لم تعد لها القدرة على تمرير أية كلمة إلى داخلي مهما كانت متناهية الصغر، ضقت ذرعا بكل المواسين وكلماتهم، بل وبقصصهم التحفيزية التي لم تكن كذلك،

قلت إنني بخير وإنني أتماثل للشفاء بشكل سريع ومدهش، ولكن هذا لم يكن كافيا لأتخلص منهم، تظاهرت بالنوم لكنهم أخذوا راحة أكبر في الحديث وأنا غافية.

اشتقت إلى أطفالي، إلى زوجي، اشتقت إلى أن نجلس رفقة بعضنا البعض ليوم واحد، لنصف يوم واحد دون أن يرن الهاتف أو جرس الباب ويضطر هو للخروج في حين أصرف الصغيرين إلى غرفتهما أو أكلفهما بحراسة أخيهما والاعتناء به.

يجب أن أجد حلا، أن أنزل الستار عن هذه المسرحية العبثية التي أخذت وقتا أكثر مما ينبغي، علي أن أطفئ الغليان داخل رأسي وأريح جسدي وليذهب أجر زيارتهم لي إلى الجحيم.

- الموت حق يا بنتي.

- صلي وادعي الله أن يغفر لك، موت الغفلة انتشرت فما بالكِ إن أرسل الله بإنذاره.

- أنت محظوظة أنك عدت إلى عائلتك سالمة معافاة، هناك من لم يستيقظ بعد العملية، التخدير كان أقوى من جسده.

- فلانة أكل الدود جسدها حين اشتد بها المرض.

- فلان تزوج حين مرضت زوجته لأنه فقد من يهتم به ويلبي رغباته.

جمل مرة المذاق لم يعد لي باع لسماعها من ضيوفي وأنا أجاهد نفسي لمسايرتهم والجلوس في وضعية تجعلني نوعا ما مرتاحة مصغية

بـل ومهتمـة، حتـى أولئـك الذيـن لم يقولـوا شـيئا جرحنـي صمتهـم المرفـق بنظراتهـم المقيتـة.

حسـنا، إن لم يكـن هـذا مـا عدلـت جلسـتي وكابـرت لأجـل سـماعه، فـإني سـأكون مضطـرة لمغالبـة النعـاس من شـدة الإعيـاء وسـماع ضحكاتهم الصاخبـة وحديثهـم الـذي لا أنتظـر منـه سـوى أن ينتهـي وينـصرف أصحابـه كي أسـتطيع التمـدد في وضعيـة تسـاعدني عـلى التماثـل للشـفاء لأجـل أطفـالي المهملـين في هـذا الظـرف بالـذات، أحسسـت بيتمهـم وأنـا عـلى قيـد الحيـاة.

اللـه لـن يعاقبنـي، يكفينـي مـا أنـا فيـه، لذلـك طلبـت مـن أم زوجـي أن تعـود إلى بيتهـا كي ترتـاح، بعـد أن شـكرتها وطمأنتهـا أننـي بخـير وأننـي قـادرة عـلى تقديـم بعـض الاهتـمام لعائلتـي. لأننـي أم عـلي أن أصبـح بخـير في وقـت قصـير جـدا، أقـصر مـن أي وقـت يسـتغرقه أي إنسـان عـاد كي يتماثـل للشـفاء.

ومنـذ ذهابهـا أصبحـت أوصـد البـاب فـور خـروج زوجـي إلى العمـل وأطفـالي إلى الدراسـة ولا أفتحـه أبـدا، زوجـي يملـك مفتاحـا أمـا دقـة الصغيريـن عـلى البـاب فأحفظهـا كأنهـما يدقـان بـأصابعهم الصغـيرة قلبي.

فعـلا بـدأت أتماثـل للشـفاء، مـر عـلى موعـد العمليـة مـا يقـارب الشـهر، أمضيـت آخـر أسـبوع منـه في راحـة وسـكينة، بـدت حيـاتي هادئـة ومسـتتبة مـع زوجـي وأطفـالي رغـم أن البيـت بـدا عـلى غـير عادتـه مقلوبـا رأسـا عـلى عقـب، نـأكل أكلا جاهـزا مـن المطاعـم أو يقـلي زوجـي أعـواد بطاطـا مـع بعـض البيـض، أصبحـت أمشـط شـعر «ماريـا» كل

صباح، وتشجعت أكثر لأرافقهم حتى الباب وأودعهم بابتسامة رغم أنها منهكة.

الحرمان يعيد للأشياء معناها البيِّن وقيمتها الحقيقية، الشعور الحقيقي بالنقص لا يتجلى إلا حين نرى الآخر مترفا بما فقدناه، وكأنه يذكرنا بما نتغافل عن الانشغال به. اليتيم لا يشعر بعمق يتمه وسط جمع من اليتامى، والفقير لن ينتبه إلى أهم ما ينقصه وسط لفيف من المعدمين، وأنا التي ترى الأجساد مكتملة، الأنوثة مكتنزة، أنا التي لا تأبى إلا أن تصدق أن كمالهم جبل ونقصي بؤرة سحيقة، أنا كيف يمكنني أن أقدم وصفا لشعور الغيرة الذي يلبسني، وإحساس الحسرة الذي يعريني، الغيرة من كل امرأة رأيتها اليوم وسأراها لاحقا، نظري دائم الارتكاز على كمالها، كما بدا نظر الجميع مصوب على نقصي أو هكذا خيل إلي.

أول خروج لي بعد أسابيع من إجراء العملية، خروج اضطراري قادني إلى طبيب الضمان الاجتماعي، ليصادق على عطلتي المرضية. لكن، كيف سأسير في الشوارع بهذا الإحساس؟ وماذا عن عيون الناس الوقحة، كيف سأتدبر أمرها؟ أصارع المرض، أصارع الحيرة في عيون أطفالي، أصارع الألم في قلب زوجي، أصارع نظرات الشفقة، أصارع كلمات التشفي، أصارع الطفيليين اللزجين، أصارع أشياء كثيرة داخل حلبة ضيقة تحكم الشد وتطبق على نفسي.

إنني كائن يحتاج بعض الراحة، وسيكون السرطان مبررا لا بأس به ليصدق الطبيب أنني يجب أن أترك مكاني مؤقتا.

نظرتـه إلي وأنـا أحمـل الملـف الأصفـر المتخـم بالفحوصـات التـي أجريتهـا توحـي بأنـه سـيدفع لي التعويـض مـن جيبـه أو مـن أمـلاك أبيـه، اعتـاد أن يحاجـج في عـدد الأيـام التـي يسـتحقها كل مريـض، يعمـل جاهدا عـلى تقليصهـا. في المـرات السـابقة كنـت أحاجـج بـدوري وأنـا أراه يقلـب شـفتيه ويتأفـف، لا يصـدق أن الآلـة الألمانيـة التـي اسـمها موظـف يمكنهـا أن تتعـب، وأن خدشـا بسـيط في إصبـع يـد المـرء يمكـن أن يؤلمـه، فكيـف بسرطـان؟ كنـت عـلى اسـتعداد تـام لأن أفـرغ في وجهـه جـام غضبـي إن تفـوه بكلمـة، وأختمهـا ببصقـة تتوسـط عينيـه، لكـن يبـدو أنـه قـرأ مصيره مـن خـلال نظـراتي المرهقـة، أو أن الامتيـازات التـي بـت أحصـل عليهـا بسـبب هـذا المـرض تفـوق جميـع التوقعـات، cancer du sein قـال بلهجـة متأسـفة، ثـم أضـاف بصـوت متـضرع شـفاك اللـه سـيدتي.

-وعافـاك، أضفـت وأنـا ألتقـط ملفـي المتخـم بفحوصـاتي، والورقـة التـي وقـع فيهـا عـلى صـدق مأسـاتي، مأسـاة لا يعلـم إلا اللـه متـى تنتهـي.

بعـد حصـولي عـلى العطلـة المرضيـة المصـادق عليهـا مـن قبـل طبيـب الضـمان الاجتماعـي تـولى زوجـي القيـام بباقـي الإجـراءات الروتينيـة، كدفـع الورقـة لـدى إدارة المؤسسـة التـي أعمـل فيهـا، كـما قـام قبـل ذلـك بأخـذ الثـدي المبتـور الـذي تـم تسـليمنا إيـاه في المشـفى محفوظـا في علبـة بعـد اسـتئصاله إلى مخـبر التحاليـل ليتـم فحصـه، في كل مـرة كان هنـاك الجديـد، الجديـد الـذي لم يتوقـف عـن التضاجـع والتوالـد مـن ذلـك الفحـص الـذي قيـل لي بأنـه فحـص بسـيط.

كيف حالك «ياسمينة»؟

- بخير الحمد لله.

بهكذا سؤال باشرت «كريمة» حديثها معي، في غالب الأحيان وما إن تسمع خطواتي على الدرج أو تلمحني من النافذة المطلة على الباب الرئيسي للبناية والتي لا تبرحها إلا نادرا، تفتح باب شقتها حين أصل إليه وتطرح سؤالها الروتيني، تستفسر عن أحوالي ثم تباشرني بالسؤال عن صحتي، وعن تطورات الوضع معي.

يطلق عليها صغار وكبار الحي لقب «الجزيرة»، مراسلة صحفية لأخبار كل أسرار البيوت بالمجان، الأشخاص من هذا النوع يجدون لذة ورعشة قوية في فض بكارة الخصوصيات.

أجيب عادة بالحمد لله، لكنها لا تتوقف عند هذا الحد، عليها أن تمارس دور الطبيبة والمرشدة والواعظة والمشفقة.

أخبرتني «ماريا» أنك نزعت خيط العملية منذ أيام. قالت كافتتاحية لحديث أجزمت أنه لن ينتهيَ عند هذا الحد.

الحمد لله، نعم، شكرا لك. أجبت ببرود.

كنت أريد التخلص منها وإكمال طريقي، أصعد الدرجات بوهن، كمن يتسلق قمة جبل شاهق محفوف بالأحجار والأشواك.

إنه لمن الحقارة استغلال براءة الأطفال وجعلهم يعيدون شريط عائلتهم الخاص أمامك أنت الشخص الراشد. أردت تنبيهها.. لكنني آثرت إكمال صعود الدرج في صمت.

انتبهت إلى أني قلت الخاصة فابتسمت، لأجل هذه الكلمة بالضبط «الخاصة»، مرضي أصبح حديث العام والخاص، والتفصيل الصغير الذي سربته «ماريا» حين ذهبت لتلعب مع ابنتها..على الأغلب تكون «كريمة» على دراية به قبل صغيرتي.

الطابق الثاني أخيرا، عند باب شقتي الموصد أحاول ضبط أنفاسي التي بت أجد صعوبة في التحكم فيها خاصة مع كل مجهود أقوم به، أخرجت المفاتيح من حقيبة يدي وحين هممت بفتح الباب، انتبهت إلى أن «كريمة» تبعتني، لم تكتف بالوقوف عند باب شقتها التي تقع تحت شقتي مباشرة، بل كلفت نفسها عناء اللحاق بي لأن في جعبتها -بلا شك- ما يتوجب عليَّ سماعه.

- اسمعي، قالت وخفضت صوتها.

توقفت عن إدارة المفتاح في قفل الباب، أحسست بالحرج إذ علي دعوتها للدخول، رغم أن بيتي مقلوب رأس على عقب، لا يوجد غرض واحد في مكانه الصحيح.

ازدردت ريقي، ابتسمت ابتسامة صفراء ودعوتها لأن تتفضل بالدخول بعدما فتحت الباب وأفسحت لها الطريق.

- نتحدث في الداخل أحسن، قلت.

كابتسمت لجملتي التي لم تكن تنتظر غيرها -بلاشك- وسبقتني إلى الداخل.

انشغلت بجمع ألعاب الأطفال، كتبهم، كراريسهم وأقلام التلوين الملقاة على السجاد، مخلفات الأقلام المبرية تركتها وشأنها، جلست هي وطوت يديها، تقوم بمسح كلي لفوضى الصالون بعينيها.

نعم تفضلي، ما لذي كنت تريدين قوله؟

أدخلت يدها داخل حمالة صدرها، أخرجت ورقة مطوية عليها بعض آثار زيت القلي، من المؤكد أنها كتبتها على طاولة المطبخ بخطها الطفولي الذي لم يتطور منذ غادرت مقاعد الدراسة وفضلت دخول المطبخ استعدادا لاستقبال فارس أحلامها، ابتسمت بسذاجة وقالت بعد أن فردتها بين يديها:

صباح اليوم وأنا أغسل أواني الفطور وأستمع للإذاعة كان الحديث الصباحي عن الأغذية والنصائح التي تساعد في الشفاء من مرضك، سرطان الثدي، وأشارت بعينيها أثناء حديثها إلى حيث البتر.

...أكثري من تناول البصل.

....الفلفل الحار يقتل الخلايا السرطانية، لا تنسي إضافته في كل ما تطهين .

...التمر، عليك أكل ثلاث حبات يوميا على الريق، بإمكانك الزيادة عن ثلاث حبات على أن يكون العدد فرديا. إن كان زوجيا لن نستفيد شيئا، نسيت السبب بالضبط لماذا يتوجب أن يكون العدد فرديا، لكنني لم أنس المعلومة. تتحدث كطبيبة مختصة في الطب البديل،

ابتسمت لهذا الخاطر، حين رأت ابتسامتي تشجعت أكثر للعب الدور وإكمال قراءة قائمتها.

...السكريات، حاولي التقليل منها وإن كان لديك بعض الشجاعة فعليك إلغاؤها نهائيا، لقد أثبتوا أنها الحبيب الأول والمفضل للخلايا السرطانية.

...اللحم ممنوع، لها نفس مفعول السكريات، أصلا ترتاحين منه، لقد وصل سعره إلى ألف وستمائة دينار للكيلوغرام الواحد. أضافت مازحة، في محاولة منها للتخفيف عني.

...فاكهة الأفوكادو غنية جدا، لا أدري ما هي لكن ابحثي عنها.

- حسنا، شكرا جزيلا عزيزتي. قلت وقد بدأ صبري ينفد.

- لقد أعطوا العديد من النصائح، لكنني للأسف لم أتمكن من تدوين سوى ما قرأت عليك، كانت تتحدث بسرعة وبلا توقف، أنهت قائمتها التي أعرفها والتي ينسخها المذيعون من الشبكة العنكبوتية ويملونها على المستمعين، ينبهر بها من لم يتصفح يوما النت، مثل «كريمة».

أعادت الورقة إلى مكانها بعد أن طوتها، بسطت يديها على فخديها وهمت بالانصراف، قالت أن موعد مجيء الأطفال قد حان، وعليها أن تستقبلهم بلقمة ساخنة، أحسست أنها وجهت خنجرا لصدري، لقمة ساخنة؟ منذ متى لم نأكل لقمة ساخنة؟

رافقتها حتى الباب، كنت أعلم أن فوضى بيتي وستضيف عليها قليلا من خيالها الخصب، ستكون نشرتها المسائية لبقية جارات العمارة لكنني قررت أن لا أكترث.

لقمة ساخنة، ظلت العبارة تتردد داخلي.. كيف لم أنتبه من قبل إلى ترف اللقمة الساخنة الذي حرمت صغاري منه؟

الأيام تمر مبهمة رغم أنه في كل يوم هناك أمر جديد فيما يخص صحتي أو عائلتي، أمضي جل وقتي نهارا في التمدد على الأريكة بعد كل جهد بسيط أقوم به داخل البيت، طبخ، تنظيف، أو حتى تحميم «محمد» وتغيير ملابسه.

ليلا استغرق في المزيد من التفكير، أنخرط عادة في رسم آخرتي، أنقب عن منافذ الأمل، وحين يصاب جسدي بالإرهاق من كل هذا، يهرب من السرير تاركا جسد زوجي مستغرقا في النوم، أبدأ في التنقل من غرفة إلى أخرى على رؤوس أصابعي محاولة قصارى جهدي أن لا أزعج أحدا.

في هذه الليلة وكما جرت العادة نام الجميع ولم يبق سوى أنا وحيرتي، فتحت باب الغرفة التي يتقاسمها «آدم» و»ماريا» بهدوء وتروٍّ بدت ألوانها تحت الإضاءة الخافتة بينما هما نائمان أكثر هدوءا من أي وقت آخر.

جلست إلى مكتبهما الذي ينجزان عليه واجباتهما، مكتب على شكل مربع بألوان ورسومات لشخصيات كرتونية مبهجة، جمعت كتبهما وأقلامهما المتناثرة، تمنيت دائما لو كان لكل منهما غرفة خاصة، يؤثثها حسب شخصيته وذوقه، لكن لا بأس هذا هو حال السكنات التساهمية ندفع نصف أعمارنا في تسديد مستحقاتها وانتظارها، ثم ندفع نصفه الآخر في التحسر على ضيق مساحة غرفها أو أنها لم تكن

عـلى قـدر مسـتوى الحلـم، الشـقة ذات الثـلاث غـرف نعمـة، أقـول لأطـرد التحـسر، الحمـد للـه أردد حـين أرفـع رأسي للوحـة التـي جعلهـا زوجـي تتوسـط الحائـط، كتبـت عليهـا آيـات سـورة «الفلـق»، بخـط مزخـرف عريـض. عـلى اليمـين صـورة دافئـة.. «آدم» يضـع يـده عـلى كتـف «ماريـا» وشـعرها متهـدل حتـى خصرهـا، التقطناهـا منـذ أكـثر مـن ثـلاث سـنوات، عـلى اليسـار صـورة حديثـة وأكـثر دفئـا، تحمـل فيهـا «ماريـا» «محمـدا» مثـل أم صغـيرة ويحتضنهـما «آدم» رغـم ذراعـه الضئيلـة.

سـحبت الكـرسي بهـدوء في محاولـة جـادة كي لا أوقظهـما أو أتسـبب في إزعاجهـما، جلسـت بسـكون، فتحـت مفكـرتي التـي جلبتهـا مـن غرفتـي وأنـا أدسـها تحـت إبطـي، بعدمـا وجـدت لهـا مسـاحة كافيـة عـلى المكتـب انتقيـت صفحـة عـذراء، اِحتضَنَـت أصابعـي الثلاثـة القلـم في حـين راح رأسي يفتـش عـن كلـمات لهـا القـدرة والجلـد كي تكـون إلى جانبـي وأنـا أحـاول تدويـن حـزني، ذكريـاتي مـع انتظـار المـوت، انهـماكي بمحـاولاتي الجـادة مـن أجـل القبـض عـلى الوقـت بـدل الضائـع مـن حيـاتي. تدويـن عمليـة انتظـار المـوت، يـا لـه مـن عمـل جـد مضـنٍ!

لم يكـن لي يومـا تـرف كتابـة يوميـاتي، باسـتثناء تلـك اللحظـات الفارقـة في حيـاتي، كفرحتـي التـي يسـتعصى وصفهـا بظهـور الخـط الثـاني عـلى اختبـار الحمـل المنـزلي، ولادة أحـد أطفـالي، نزهـة مـع عائلتـي، وهديـة غـير متوقعـة مـن زوجـي وإن كانـت هـذه الأخـيرة نـادرة الحـدوث خاصـة بعـد تفاقـم متطلبـات الحيـاة وزيـادة المسـؤوليات.

لا أحد يدري بالضبط أيهما أخف وطأة وأقل ضررا على قلوبنا، أن يخطفنا الموت فجأة دون أن يجر قدميه أو يسعل كي نلتفت إليه، أم يراوغنا، يرسل إلينا إنذارات يومية، رسائل سماوية تساعدنا على فراق الأشياء بالتقسيط، تسحبنا من أيدينا كي نودع الأماكن، الأشخاص، الأشجار، الأزهار، الطرقات، وحتى القمامة عند آخر الشارع، نبكيهم قبل أن يبكوننا.

كيف يمكنني توديع هذه الغرفة بالذات بكل ما تحتويه وما تحمله من تفاصيل؟

كتبت أعلى الصفحة (الجميلة والوحش) كعنوان، لست متيقنة إن كان الوحش هو هذا الذي عرَّى الجهة اليسرى من صدري وشوه ما يسمى بمفاتن المرأة أم أنه خوفي وعدم قدرتي على التعايش بدون القطعة المبتورة كحدث استثنائي وإن كان غير مرحب به، قلبي تعرى تماما، الجهة اليسرى مكشوفة كبيت بلا سقف، بلا أبواب ولا نوافذ قلبي أصبح عاريا أمام كل الأعين والألسن. كلوحة فنية أفسدها أحد العابثين في غفلة من الرسام.

عزيت نفسي بأنه ينطبق على وضعي إلى حد بعيد قول الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي:

« لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغرّ بطيب العيشِ إنسانُ»

هـل جـاء نقـصي ليذكـرني أن لا كـمال؟ لكننـي لم أعتقـد يومـاً أننـي كاملـة، كنـت فقـط مكتنـزة الأنوثـة، كنـت مـن قبيلـة النسـاء مكتمـلات الأنوثـة اللـواتي تغنـى بنهودهـن «نـزار قبـاني»، صرت إلى قبيلـة الأمازونيات مبتـورات الأنوثـة.

رجعـت بالصفحـات كثـيرا إلى الـوراء، وجـدت أننـي سـبق ودونـت بقلـم زهـري وخـط جميـل:

« الحيـاة تشـبه حديقـة ورود جميلـة» ، اغتصبـت ابتسـامة مسـتهزئة زرعتهـا عـلى شـفتي، يبـدو أننـي كتبـت هـذه الكلـمات قبـل أن تُخـرج الحيـاة خوازيقهـا لتجلسـني عليهـا الواحـد تلـو الآخـر، قبـل أن أتشـبع مـن الـورد والـوردي، أقلبـت الصفحـة لكـن قبـل ذلـك كتبـت تحـت العبـارة السـابقة:

« الدنيـا متاهـة كبـيرة، الحيـاة اختارتنـي أنـا بالتحديـد لأكـون دميتهـا التـي قـررت أن تلعـب بهـا ومعهـا لعبتهـا القـذرة»

لقـد تأكـدت أن القـدر غـير عـادل، كمـن يلعـب معـي لعبـة الغميضة! لقـد داعبنـي لسـنوات، هدهـد روحـي بـأن منحنـي زوجـا طيبـا غطـى عـلى كل حرمـاني ثـم أجـزل عـليَّ بثلاثـة أطفـال كفاكهـة سـائغة لحبنـا، جعلنـي وجودهـم ورغـم عـسر الحـال أمتلـك طمأنينـة الدنيـا، سـاعدني

كي أمشي متماسكة على أرض آمنة قبل أن يجبرني على أن أدوس ودون أبسط مقدمات على اللغم داخلي، لقد تناثرت شظايا من الضياع، الألم، الحيرة، وشظية كبيرة جدا من:

لماذا أنا بالذات؟

ولماذا لست أنت؟ أتاني جواب بسؤال حارق، خمنت أنه صوت الحكمة الذي تؤمن به جدتي.

10

جلست على سجادة الصلاة التي أهملتها كثيرا، ألصقت جبهتي بالأرض وبكيت طويلا، كانت الدموع تخرج دافئة وديعة/ هادئة من قلب صاغر مستسلم، طلبت من الله أن يترأف بحالي لأجل أطفالي، أن يغض الطرف عن إيلامهم كي لا يعيشوا ما سبق وعشته بعيدا عن أمي. كل تضحيات الأمهات تُبذَلُ لأجل أطفالهن. وعدته أن أعدل جميع النعال المقلوب قفاها متحدية عظمة وجهه، أن أستغفره في أماكن الانتظار كما يطلبون منا: «أملأ أوقات الانتظار بالاستغفار» حتى تلك الرسائل التي تصلني على الفيس- بوك والتي كنت أراها الأكثر إزعاجا على الإطلاق سأرسلها طواعية إلى مئة شخص وليس عشرة أشخاص فقط، سأعمل على أن لا أتزين بصورة مبالغ فيها قبل النوم كي لا أغري الشياطين وحتى لا أزعج الملائكة كما كانت توصيني جدتي.

لقد تجاوزت أول مطبة، لقد تركتهم يستأصلون أنوثتي، لا بل ساعدتهم حين سرّعت فحوصاتي، ومستعدة لأن أستأصل الثدي الآخر، وأنا على أتم الاستعداد لجلسات الكيماوي التي أخبرني الطبيب أنها ستبتدئ هذا الأسبوع وستكون المدة بين كل جلسة وأخرى واحدا وعشرين يوما، ستكون البداية يوم الأربعاء، لم يتبق إلاّ يومان.. لقد

أصبحت مستعدة لتقبل أي علاج ومهما كان شكله.. المهم أن لا أرى نظرة الفزع، نظرة الخوف من الفقد داخل أعين عائلتي!

- ماما إلى متى ستستمرين في الصلاة؟ سألتني «ماريا» التي وقفت عن يميني قرب سجادة الصلاة ويدها الصغيرة على كتفي تحاول لفت انتباهي.

- أنهيتُ حبيبتي. ابتسمت دون أن أستدير نحوها في محاولة فاشلة مني لإخفاء حبتيْ الطماطم اللتين أصبحتاها عيني.

لم أكن أصلي، فقط وليت وجهي شطر المسجد الحرام كي يسمعني الله جيدا وأنا أترجاه وأتضرع لأجلكم يا صغيرتي. كنت أريد مصارحتها بهذا لكنني تراجعت.

- ماما، لقد جعنا. نريد أن نأكل كي ننام، لحقها «آدم».

- هيا بنا، نزعت إسدال الصلاة وحضنت كلاً منهما بذراع وسرنا نحو المطبخ حيث ينتظرنا والدهما.

ليلا حين ودعتهما بقبل قبل النوم، وضعت «محمدا» الذي غفى أخيرا داخل سريره الصغير المجاور لي، خلدت إلى سريري وسرعان ما انسحبت تحت البطانية لكنني لم أستطع النوم، أعطيت احتمالات كثيرة لما ينتظرني، فكرت في الكثير من الأمور حتى تلك التي لم تكن ذات أهمية لي في السابق، تقلبت يمينا وشمالا في مكاني دون أن يغمض لي جفن، ولا زوجي استطاع النوم بالمقابل، كنت أعلم هذا رغم أنه كان يولينني ظهره، ثم انتهى بنا الحال أن أصبح كلانا يولي ظهره للآخر.

لا توجد وسادة في العالم قادرة على حمل هذا الرأس بخوفه وهمومه، ولو انفجر الآن فلن يكون عسيرا عليه أن يحيل المدينة إلى ركام، تماما كداخلي.

كنت منكمشة على نفسي في وضعية الجنين، الجنين الذي تمنيت لو بقيته في بطن أمي الآمن، لو أني راوغت الأشهر التسع وغافلتها لتزيد سنين إضافية، ربما كان خلودي داخل بطنها سيستبقيها على قيد الحياة. ولكنها حكمة الله، أجابني صوت خفي، ربما يختبئ في أقاصي الروح مهمته هدهدة وتنويم حيرتي. أعدت استذكار كل ما سبق وروي لي عن العلاج الكيماوي، وقد ساعدني ليل الشتاء الطويل على تذكر كل التفاصيل المخبأة في جيوب الذاكرة، إحدى زميلات المرض اللواتي تعرفت عليهن على الفيس- بوك، بالضبط من مجموعات مكافحة السرطان التي لا يمضي يوم دون أن أتفقد محتوى ما يُنشَر، أقول زميلة المرض مثل زميلة العمل، وزميلة الدراسة، أخبرتني أن الألم لا يمكن وصفه، ولم تضف حرفا واحدا، زميلة أخرى شابة يافعة تحملت العلاج برحابة صدر لكنها لم ترضخ أبدا لقرار استئصال الثدي، فتاة في أواخر العشرينيات كيف تسمح لجزار مهذب كما يصفه «برنارد شو» بأن يجتث أنوثتها، أرادت أن تموت وتدفن بجميع أعضائها، رغم أن الطبيبة أخبرتها بأن الدود سيجعل جسدها تحليته المفضلة، الدود الذي سيكون داخل بطون الدجاج، لكنها فضلت الدود على الفقدان، الدود سيلتهمنا في كل الأحوال، أخبرتني مستهزئة!

تزحزح زوجي في مكانه، لا يزال مستيقظا، كان يريد أن أطمئنه، ولم أكن بحاجة لسماعه، لأنه لن يستطيع التفوه بما أريد سماعه، وحتى لو كانت له تلك المقدرة فلم أعد بحاجة إليها الآن على الأقل. أحسست ببعض الحقد يجتاح قلبي اتجاهه، كان من النوع الذي يعاني من إعاقة متقدمة في إظهار مشاعره، إعاقته لا تختلف عن إعاقة أغلب رجال هذا الوطن.

طالما كدسنا الكلمات الجميلة داخلنا كنوع من الكبرياء أو اللامبالاة، حتى أصبحنا متمرسين في إطفاء بريق الأمل في عيني من ينتظرها منا، تجف فيما بعد ويخرج ضبابها من القلب على هيئة خناجر. كيف سمحنا لقلوبنا أن تتحجر وهي تلهث في شوارع الحياة المادية! لقد أوصلنا أنفسنا إلى الحد الذي أصبحنا فيه عاجزين عن قول كلمة صغيرة، كبيرة مثل «أحبك».

كتبت له في السابق الكثير من النصوص القصيرة المغلفة بشغفي به، كتبت أن قلبي قبلته، كتبت أيضا أن وطني يمتد بين حدود ذراعيه، أخبرته مرات عدة أنني أتوحد به، وأخرى أن حبه هو الابن الشرعي لتزاوج قلبينا، قرأت عليه الكثير من أشعار «درويش» في زمن اللاسلكي الذي كنت أهربه سرا إلى غرفتي، حتى ظننت أنه أحبني من صوتي ومن طريقة إلقائي لتلك الأشعار، فالأذن تعشق قبل العين أحيانا! وقد أحب أحد الشعراء مذيعة لشدة افتتانه بصوتها وحين التقى بها ورآها أمام عينيه أحس بالخذلان، وربما شعر بمدى سذاجته.

تركت له على مكتبه وعلى باب الثلاجة وعلى مرآة الحمام بعد الزواج عددا لا متناه من قصاصات ورق صغيرة عليها مقتطفات من قصائد «نزار» و»بدر شاكر السياب» والكثير من الاقتباسات التي تمجد الحب والمحبوب، كنت أريده أن يحبني بهذه الطريقة، لكنه كان يجيبني عادة بـِ: «شكرا». لم يكن لدي شك في نواياه الصافية اتجاهي، لكنني كنت أريد لقلبي أن يطمئن وأن يلتهب أكثر، غير أنه لم يستطع أن يعي أن «شكرا» باردة كانت تطفئ كل الذي وددت إشعاله. حتى لو أخبرني بكل هذا الآن فأنا عاجزة حتى عن شكره.

ليس لدينا ديك يصيح إيذانا ببزوغ فجر يوم جديد كما كان يفعل ديك جدتي وأنا طفلة، لكن صوت المؤذن لصلاة الفجر أعلن عن نهاية ليلة خلتها لن تنتهي..

«الله أكبر

الله أكبر..»

كنت أردد خلفه بصوت دامع.

رجوت الله أن يساعدني على إغماض عيني لساعة أو ساعتين قبل أن أنهض للمجهول الذي يدعى الكيماوي. ربما اقتحام المجهول سيكون أريح نسبيا من انتظاره بعيون الهلع.

11

«يـا إلهـي! أنـا بحاجـة ماسـة ومسـتعجلة لعينـين أكـبر، كي تتسـعا لدمـوع أكـثر.»

في المـاضي كنـت أرسـم خططـا كثـيرة لمـا سـأجاهد نفـسي لأجـل إنجـازه، أسـطِّر برامـج متنوعـة عنـد رأس كل سـنة، أرتـب مـا يتوجـب عـلي القيـام بـه خـلال الشـهر والأسـبوع، ثـم خـلال كل يـوم، عنـد نهايـة الشـهر أتذمـر أو أسـخر مـن نفـسي، أؤنبهـا لأنهـا لم تلتـزم بالقيـام بـشيء مـن كل مـا سـبق ودونتـه، أهمـل الورقـة التـي دونـت عليهـا مخططـي وأعيـد وعـد نفـسي بمخطـط جديـد لشـهر جديـد، كنـت أملـك الكثـير مـن الوقـت، أمامـي أسـابيع وأشـهر وحتـى سـنوات لا حـصر لهـا، مخـزون الأيـام لا ينتهـي، الغـد بالنسـبة لي لا يملـك حـدا، الزمـن بـلا سـقف ممتـد إلى مـا لا نهايـة، أو عـلى الأقـل لم أفكـر يومـا بجديـة في نهايتـه، اللهـم باسـتثناء الصحـوة التـي تأتينـي خـلال المآتـم التـي كنـت أحضرهـا حـين أفقـد قريبـا أو أحـد معـارفي، فأتذكـر أن لي أجـلا يومـا مـا لكـن أؤجـل دائمـا التفكـير في هـذا اليـوم مـا.

اليـوم أحـس بعجـز سـحيق، لم تعـد لي خاصيـة إهـمال الورقـة لأنهـا أصبحـت مجـرد مسـودة ولا المقـدرة عـلى إعـادة ترتيـب أفـكاري مـن جديـد عـلى ورقـة ناصعـة البيـاض. الأمـر يشـبه إلى حـد بعيـد وجـودي

داخل قاعة امتحان رسمي، مصيري، يحدد مسار حياتي القادمة، وكلما مر الوقت فقدت خاصية التخلي عن الورقة التي أكتب عليها مهما حملت من أخطاء وعثرات وتعويضها بورقة جديدة أحاول جديا أن أكون فيها أكثر تنظيما وأكثر وعيا بما يتوجب علي خطّه بالضبط، وربما قد يصل الأمر بي في النهاية لدفع المسودة إن اقتضى الأمر دون أسف.

أتساءل في هذا الوقت العصيب بالذات عن حجم وشكل الورقة التي لها القدرة على حمل كل ما يختلج داخلي. كيف عليَّ ترتيب أفكاري وأولوياتي دون أن أختنق داخل دهاليز الأسئلة التي لا تريد أن تنتهي؟

الأمر بات محسوما، أنا الآن داخل الحلبة، لم أعد ذلك المتفرج المتحسر فحسب كما كنت سابقا وأنا أسمع عن غيري يقاتل، يصارع، ويستميت لأجل الهرب من الموت، حلبتي واسعة، شاسعة وممتلئة عن آخرها، جسد مرهق يحاول أن يتوارى عن أعين جيش من الطفيليين، يريد أن يبتعد عن كل ما يشتت تركيزه الواهن الذي يسعى لتصويبه نحو هدف واحد وهو قتال ميليشيات من الخلايا، أخبث وأشرس من جميع الميليشيات التي كنت قد سمعت عنها. خلايا مجنونة، متمردة، لئيمة، خبيثة، أصابها السعار.

تذكرت الخيط الذي يربطني بالله، أغلبنا يرفع عينيه نحو السماء حين يداهمه مصاب ما، لدينا يقين تام بأن هناك يد لا بد وأن تتدخل لانتشالنا في النهاية مهما تأخرت أو عَمِدَت إلى التَّماطل

في البداية. أنا في أشد الحاجة إلى هذه اليد، أريدها أن تمسك بيدي اليوم قبل الغد.

أرفع عيني نحو السماء، أدعو الله في سري أن لا يفلت يدي ثم أقوم ببسطها بعدما تمددت على السرير، كي يتم غرز الإبرة إيذانا بانطلاق متاهة الكيماوي.

كنا داخل قاعة شاسعة تضم ثماني أسرة، بجانب كل مريضة قضيب معدني يحمل كيسا شفافا يحتوي على مصل الدواء الذي قام الطبيب بتحضيره خصيصا بالمقدار والمعيار الذي يتناسب مع حالة كل مريضة. كان الكيس موصولا باليد عن طريق أنبوب بلاستيكي شفاف تنتهي نهايته بحقنة.

طلب مني الطبيب قبل مباشرة العلاج أن أكون أكثر تفاؤلا وأكثر إيمانا، أضاف أن الحالة النفسية تلعب دورا هاما في تقبل الجسد للدواء ونجاح العلاج مهما بدا عويصا.

التفاؤل، الأمل، الإيمان، ثلاثية لا يجب أن أصدقها فحسب بل علي أن أتدرب عليها وأعيش داخلها.

من خلال تفحصي لوجوه المريضات وطريقة تعاملهن مع الطبيب والممرضتين المرافقتين بدا أنهن أكثر خبرة مني أنا صاحبة الجلسة الأولى، باستثناء مجاورتي التي اكتشفتُ أنها في بداية الرحلة حين أدارت رأسها نحوي وبعد أن أشارت بعينيها إلى أكياس المحاليل المعلقة على القضبان سألتني مبتسمة بسذاجة:

-أ هذا هو الكيماوي؟

أومأت برأسي أن: نعم.

قالت بعد قليل من الصمت:

-كنت أسمعهم دائما يقولون «راحتْ تكوي» «بدا يكوي» ارتبط مصطلح الكي لدي برائحة «بوزلوف» أو الرائحة التي تنبعث من الآلة التي يستخدمها اللحّام، ابتسمت لسذاجة أفكارها في حين ضحكت هي وخبأت ضحكتها خلف منديلها الورقي.

كانت تريد أن تضيف شيئا غير أنها انكمشت على نفسها حين بدأت إحدى المريضات بالصراخ والعويل بعدما رفض جسدها ما تسرب إليه من محلول كيماوي، التفتنا جميعنا لمتابعة الأحداث التي انجرت عن هذا الرفض وركزنا أنظارنا على استنفار الطبيب وممرضتيه.

لم يمض وقت طويل حتى أغمضت عينيها وصمتت نهائيا، لقد خدرها الدواء.

خيم الهدوء على القاعة بعد إكمال الطبيب لمهمته وانصرافه مؤقتا، كانت القطرات تنساب بهدوء من المحاليل المعلقة بقضبان معدنية والموصولة بأيدينا، الصالة تحتوي على ثمانية أسرة، أربعة تقابل أربعة أخرى، كل سرير متدلٍّ نحو الأسفل، كبطن بقرة ويحمل جسدا يعلوه رأس تائه بملامح شاحبة. استلقت كل واحدة منا تحتضن خوفها، ألمها وأملها.

عـلى السريـر الـذي يقابلنـي مسـتلقية امـرأة لا يظهـر مـن وجههـا سـوى عيناهـا، كان وجههـا متواريـا تحـت العجـار. التقليـد الجزائـري الآيـل إلى الـزوال، ارتدتـه المـرأة في المـاضي لتسـتر وجههـا، وارتـداه بعـض المجاهديـن أثنـاء الحـرب للتخفـي خلفـه مـن مطـاردات جيـش الاحتـلال وأعوانهـم، وتسـتعمله اليـوم هـذه المـرأة ولا شـك لـكي تنجـو بنفسـها مـن عيـون النـاس الفضوليـة، كانـت تريـد أن تدخـل هنـا وتخـرج بسـلام دون أن تضطـر للتعـرف إلى أحـد، أحيانـا يكـون التخفـي نوعـا مـن العـلاج، ويكـون البعـد عـن النـاس أنجـع عـلاج.

بدونـا في صالتنـا هـذه لا نختلـف عـن جنود أثقلتهـم المعـارك وأنهكهم القتـال في حـروب لا تريـد أن تضـع أوزارهـا أبـدا، أغلبنـا تنتظـر جـولات أخـرى مـن حـرب تعـرف أنهـا محسـومة لصالـح هـذا الكلـب المسـعور الـذي ينهـش كيانهـا يومـا بعـد الآخـر، بعضنـا تضحـك عليـه بفتـات الأمـل أو الثقـة الزائـدة التـي شـحذتها مـن تجـارب الأولـين، وقليـلات سـلمن أنفسـهن للـه، منتظـرات اليـد التـي سـتمتد لا محالـة. اسـتغرقت في تفحـص الوجـوه والأجسـاد، بـدا لي أننـا داخـل قبيلـة « أمازونـكا» أو أننـا ننحـدر مـن صلـب سـكانها الأصليـين.

تقـول الأسـطورة اليونانيـة أن الأمازونيـات أو كـما يطلـق عليهـم مصطلـح «الأمازونـكا» هـن صاحبـات الثـدي الواحـد، كانـت الأم في تلـك الحقبـة الزمنيـة تقـوم ببـتر أو كي أحـد ثديـي طفلتهـا حتـى يضمـر ويضمحـل ولا يكـون عائقـا أمـام مسـتقبلها القتـالي ، كي لا يعيـق اسـتعمالها للأقـواس والنبـال.

تلـك معتقـدات الأمهـات عـن بـتر الثـدي، كـم تبـدو المفارقـة بـين معتقداتهـن وبـين مـا أجبرنـا عليـه نحـن شاسـعة جـدا. البـتر لديهـن فخـر وقـوة، والبـتر لدينـا هـوان وضعـف، شـتان بـين مـا نقـدم عليـه بمـلء إرادتنـا ومـا نجـبر عليـه غصبـا عنَّـا.

كانـت أدوات الحـمام تتداخـل، الجـدران تتقـارب مـن بعضهـا حتـى تـكاد تطبـق عـلي ثـم تعيـد الانفـراج والتباعـد حتـى لا أكاد أراهـا، المـرآة تتـماوج ليتـماوج معهـا شـكل وجهـي، الدمـوع تتسـاقط كحبـات لؤلـؤ مـن تلقـاء نفسـها، كنـت أسـتفرغ في المغسـل، صـوت المـاء المنصـب، صـوت أحشـائي، صـوت مخاطـي، وصـوت طفـليَّ في الردهـة وهـما يسـألان والدهـما بـبراءة مغلفـة بالكثـير مـن الخـوف: «بابـا، مـا بهـا ماما؟»

صـوت الرضيـع يعلـو، يزيـد في توتـري، يبـكي بـلا انقطـاع. زوجـي عنـد بـاب الحـمام يقـول بتأثـر استشـفْتهُ مـن نـبرة صوتـه:

« اصـبري، شيء طبيعـي بعـد الكيـماوي»، يحـاول أن لا يتوقـف عـن مواسـاتي فيضيـف:

« يحـدث هـذا معـك لأنهـا أول حصـة، المـرة القادمـة سـيكون كل شيء عـلى مـا يـرام»

الـدوار يعيـد كلماتـه كالصـدى، أسـتفرغ أكـثر، وكأننـي ولـدت لأعيـش أربعـين سـنة وأتقيأهـا الآن بالضبـط بعـد أول جلسـة مـن جلسـات الكيـماوي، أسـتفرغ الـلاشيء، الفـراغ والخـواء الـذي لم يعـد هنـاك سـواه داخـلي، ضحـكات أطفـالي وفرحهـم، أول لقمـة دسـها زوجـي بيـده داخـل فمـي.

لا أستطيع التفوه بكلمة واحدة للرد على طمأنة زوجي لي، أنهي إفراغ بطني، أمضمض فمي، أغسل وجهي وأستدير حيث يقف بانتظاري، لقد أمضى أمسية اليوم على هذا الحال، يرافقني من السرير إلى الحمام، ينتظرني بطيب خاطر حتى أنهي عملية الاستفراغ ثم يمد يده لتمسك بيدي ويرافقني حتى السرير.

أحاول في كل مرة أن أتحاشى نظرة الهلع في عيني طفلي، استعارت مني «ماريا» دور الأم، كانت تبدو مثل أم صغيرة، تعي جيدا كيف تلاعب طفلا صغيرا مثل «محمد» وتشغله عن غيابي.

- لقد صار وقت العشاء، هل أحضر لك لقمة تتقوتين بها؟ يسألني زوجي.

- لا.. فلتأكل أنت والأولاد، ليست لدي رغبة في تناول شيء. أجيب وأنا أحاول طرد رائحة الأكل من مخيلتي.

بعض الأعراض والمضاعفات التي أمر بها تذكرني بأعراض الوحم التي سبق ومررت بها، فقط هذه الأخيرة وهبتني بعد صبر حياة جديدة، أطفال استحق مجيئهم كل ذلك العناء المحبب، أما هذا اللعين، ماذا يمكن أن يقدمه لي في النهاية؟

الحياة؟ أشك في ذلك.

12

يضل الإنسان يفكر في ماهيته، في من يكون، عن دوره الحقيقي في الحياة، وعن سبب وجوده، حتى يصل إلى النقطة التي يكتشف فيها أنه مجرد رقم. إنّ اسمه، كنيته، سنوات عمره، الأكلة التي يفضلها، المواقف التي تدمي قلبه، التفاصيل التي تضفي الفرح على يومياته، أحلامه، انكساراته، كل هذا لا شيء أمام كونه مجرد رقم، رقم يثبت في إحصائيات البلدية كل عشر سنوات.

الآن أنا رقم، رقم مرعب، وبتعبير أدق أنا هي الواحدة من بين عشر نساء التي يمكنها أن تصاب بمرض سرطان الثدي في مرحلة ما من عمرها، لقد أصبت ولم يعد الأمر مجرد تكهّن.

أنا رفقة أخريات وبغير حول ولا قوة منا ولحكمة ما نجهلها طبعا نشكل قائمة المصابات الفظيعة، دون أن نملك نصف إجابة لسؤال: لماذا نحن؟ لماذا لست أنا رفقة أخريات يكون اسمي مزهوًّا ضمن قائمة الناجيات؟

بعد الجلسة الثانية لم أعد أنا، جسدي لم يعد يخصني أبدا، في كل مرة يحاول زوجي الاقتراب مني أصده، أحيانا بعنف وفي أحيان أخرى أتحجج بأنني مرهقة، لا لست أتحجج إنها الحقيقة، لقد فقدت الرغبة في كل شيء، كل ما كان يصنع لذتي في السابق لم يعد له

أي معنى، لساني فقد قدرته على تمييز أي ذوق، معدتي يتقلب حالها بمجرد رؤية الأكل، حتى ضحكتي أصبحت واهنة أرسمها على شفتي مجاملة لا غير.

أدخل المطبخ بعد ثلاث أيام على الأكثر من كل جلسة كيماوي، أطهو لزوجي وأطفالي أطباقا لا أعرف طعمها حتى لو تذوقتها عشرات المرات، أتعثر بين الحين والآخر بأحد الصحون بعثت به إحداهن جازمة أن محتواه هو الشافي، تفنن الجميع في طبخ مالا يطبخ وإرساله مع الكثير من الابتهالات والأدعية، بعضها صادق وبعضها لا يعدو كونه يخرج من الشفاه ربما لأجل الواجب فقط، أما الأغلبية فكان هدفهم رؤية الحال الذي صرت إليه، وحين لا يجدون ما يتحججون به للوصول إلى مبتغاهم، يقومون بطبخ ما سنحت به الفرصة ويحملونه إلي مع وفير من النظرات الوقحة.

بدأت أحس أنني أضعت توازني، على الأغلب زال جديا، كتفي الأيسر أفقدني استقامة ظهري، جعل مني شبه محدودبة.

«إنه الجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو واحد تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى»

ثدي، نهد، ثلاثة حروف قلبت موازين جسد.

لقد نبهتني «هالة» المساعدة الاجتماعية في المشفى منذ أيام إلى أن كتفي مع مرور الوقت سيرهق وستميل الجهة اليسرى بسبب الثدي المفقود ، أخبرتني أيضا أنه تتوفر أثداء مصنوعة من مادة السليكون تباع لدى الصيدليات، ستساعدني كي أبدو طبيعية. وعدتها

أننـي سـأقتنيها حـين يتوفـر لي بعـض الوقـت علنـي أرمـم أنوثتـي.

ليست غالية، أكدت لي.

ليـس مهـما، أجبتهـا، مهـما كانـت غاليـة لـن تكـون أغـلى مـن ثـدي صنـم امـرأة عـين الفـوارة الـذي تدخـل وزيـر الثقافـة بإعطـاء أوامـره لترميمـه.

ثـدي صنـم يتدخـل لأجلـه وزيـر وثـدي امـرأة مثـلي لا أحـد يأسـف عليـه.

كنـت أنتظرهـا أن تخـبرني أنهـا مقارنـة غبيـة، وأننـي فقـدت صـوابي وأنـا أقـارن نهـدا بقطعـة مرمـر، لكنهـا ضحِكـت وضحكـت بـدوري طويـلا يومهـا.

شـعري بُرنـس جـمال المـرأة الـذي كانـت جـدتي تسرحـه تسريحـات تقليديـة تجعلنـي أخجـل بهـا، الـذي غطيتـه حـين خـيرني عمـي الـذي لا أراه إلا في المناسـبات بـين الحجـاب وإكـمال الدراسـة، شـعري الغجـري الـذي ورثتـه عـن أمـي والـذي أخـذ سـواده مـن حبـات التـوت، يتسـاقط، توقعـت أن يتخـلى عنـي الجميـع باسـتثنائه، خمنـت أن جميـع الزيـوت والخلطـات التـي كانـت تغذيـه بهـا جـدتي ستشـكل حصنـا منيعـا للـذود عنـه، لجعلـه يتشـبث بـكل قـوة بجـذوره.

لـو كان الألم يختـصر في صرخـة لكانـت صرخـة سـقوط حبـات التـوت وتدحرجهـا عـلى أرضيـة الحـمام، رؤيتـه وهـو يجـاري المـاء ويسـابقه نحـو البالوعـة كان مـن أكـثر المناظـر التـي عـصرت قلبـي.

انتحبت، كانت الدموع تنزل مختلطة مع الماء الذي لم أستطع التوقف عن سكبه فوق رأسي، أريد أن أتأكد من صحة ما أرى، أمد يدي لألمس شعري، فتصطدم بما يشبه قطع صوف خروف مبتلة، متشابكة. لماذا فقد هويته قبل أن يمضي؟

ليتني أسمع صوت أحدهم يخرج من المرش مع الماء المنسكب، يطمئنني، يخبرني أنني داخل حلم وسأستفيق منه قريبا لا محالة.

أفرك رأسي، أدخل أصابعي داخل خصلات شعري المتبقية، تلتصق بها مرة أخرى، لم يعد هناك مجال للتفنيد، أنا خارج الحلم أقف داخل مركز الحقيقة، الكيماوي في خطته للقضاء على الخلايا السرطانية أحرق الأخضر واليابس وتركني تحت هول صدمة جديدة.

سكبت الماء الدافئ بارتباك على جسدي، شطفت الصابون العالق على بقية أعضاء جسمي، ورغم أنني تدثرت جيدا بمنشفة الحمام كما جرت العادة إلا أنني وقبل أن أخطو خطوة واحدة خارج باب الحمام انتبهت إلى أنني معراة بالكامل، أزلت يدي المرتجفة عن مقبض الباب ورحت أبحث بجدية عن خرقة، خرقة أيا كان شكلها أو حجمها المهم أن تكون لها القدرة على ستر عريي وتغطية رأسي. الأمر جاد، أبحث بهيستيريا داخل سلة الغسيل، ليست لي ذرة جرأة تمكنني من فتح باب الحمام والسير مسافة مترين باتجاه غرفتي أين أدس يدي داخل درج خزانة ملابسي وأخرجها بسهولة.

ماذا لو رآني زوجي؟ أطفالي؟ ليست لدي شجاعة «آمال» زميلتي في الكيماوي التي أخبرتني بكل ثقة أنها لن تكلف نفسها عناء تغطية

رأسها الأصلع، وأنها متعايشة مع المرض وعلى زوجها أن يتعايش معه ومع جميع تطوراته، عليه أن يتقبلها كما هي وفي جميع أحوالها التي آلت وستؤول إليها.

من أين يأتي أمثالها بكل هذه الثقة؟ من زرعها فيهم، أ يعقل أن تكون الأم التي حُرِمت منها؟

الآن تأكدت من أمرين، الأول أن كلمات زوجي بأن كل ما حدث لي من مضاعفات إثر أخذ جرعات الكيماوي سيكون في الجلسة الأولى فحسب كان اجتهادا شخصيا خاطئا من قبله، وأن العكس تماما إذ بقي متواصلا معي وصولا إلى الجلسة الثالثة والله يعلم ما ينتظرني فيما سيأتي، أما الأمر الثاني فهو صدق ما قالته الطبيبة، لقد كانت على حق حين أخبرتني أنه من حسن حظنا أننا أصبحنا نمتلك في مؤسستنا الاستشفائية فرعا خاصا بالأورام السرطانية، كما لم تكن تسخر أو تبالغ، لم تكن تعبث بمشاعري أو تستفزها كما ظننت في البداية، كانت تعلم جيدا أن هذا الجسد ليست له المقدرة على تحمل همَّين، هم الكيماوي وهم التنقل من ولاية إلى أخرى كل واحد وعشرين يوما لأجل أخذ جرعة الكيماوي.

أحمد الله ألف مرة حين أتذكر كلماتها، بالرغم من أن الحالة التي ننهي بها كل جلسة من جلسات الكيماوي لا يمكن وصفها، بالنسبة لي على الأقل.

جلستي الثالثة كانت صباح هذا الأربعاء، وجوه اختفت من الصالة وحلت محلها وجوه أخرى.

ضيفة جديدة حلت اليوم على قاعة «الأمازونيات، ترتدي جلبابا أسودَ، هل يعاقبها الله أم يختبر قوة صبرها؟

تطلعت إليها، تفحصتها بسذاجة ومثل البليدة تساءلت في قرارة نفسي: متجلببة تمرض؟

لم يختلف سؤالي عن سؤال صاحبة الأسئلة الساذجة الذي طرحته علي يوم تغيب الطبيب بسبب وعكة صحية: طبيب يمرض؟

كنت قد بدأت أفقد وعيي، قطرات المحلول مستمرة في الانسياب، بدت وكأنها تدمع بلا توقف، أتغذى بدموع كيس بلاستيكي، ابتسمت للخاطر.

قبل أيام أوقفتني إحدى النساء من معارفي، امرأة وهبت نفسها لإسداء النصائح التي لا يطلبها أحد منها.

- هل تصلين الصلوات الخمس في أوقاتها؟

- لا، أجبت دون أن أعطي أي مبرر.

- أستغفر الله، قالتها بتعالٍ.

- لم ترقها إجابتي لكنها استمرت في طرح أسئلتها.

- تقرئين الورد اليومي؟

- وهل كل الأصحاء قرؤوا الورد اليومي؟

- أستغفر الله، قالت بنفاد صبر، أجيبيني وفقط يا «ياسمينة».

- أحيانا.

لم أجبها على سؤالها إلا تفاديا لاستغفار آخر متعال.

- هل أنا أمام منكر ونكير؟ أنا من اختطفت السؤال هذه المرة ممازحة.

- لا تستهزئي رجاء!

كانت تحمل مسبحة في يدها، تلبس إسدالا أبيضَ، وحجابا أبيضَ، وتنتعل أيضا حذاء أبيضَ، عادت وسحبت مني ميزة طرح الأسئلة:

- هل لباسك هذا يدل على لباس المرأة المسلمة؟

التي معي في القاعة الآن ترتدي لباسا يدل على لباس المرأة المسلمة مثلما وصفته لي جارتي، لباسا شرعيا، فضفاضا لونه غير ملفت ولا مغرٍ للأبصار التي أمر الله بغضِّها، لا يجسدها، والأهم من كل هذا لا يظهر منها سوى وجهها وكفيها، ولكنها خرقت المعادلة وأصيبت بالسرطان، أين الخلل بالضبط؟ تساءلت.

أستغفر الله، وعدت لتأمل قطرات المحلول وهي تنساب قطرة، قطرة، أريد أن أنأى بنفسي عن مراقبة وجوه المريضات الحائرات، خائرات القوى. القطرات تعرف طريقها جيدا، وجهتها حرق الأخضر واليابس.

الله يختبرها ولا شك يختبر صبرها، ويعاقبني على تقصيري.

ألا يكون الله في الحقيقة منشغلا بأمور أهم من اختبارها ومعاقبتي؟

معلومات تتبلور من جديد، وأخرى تمحى وتستبدل جذريا، خالتي «زكية» العجوز التي تجاوزت السبعين من العمر أخبرتني أنها أرضعت عشرة أبناء ولم يشفع لها هذا بشيء ولا لعقدها اللمفاوية.

«الرضاعة الطبيعية تقي من سرطان الثدي» لماذا لم تقها هي السبعينية المجعدة، ماذا يريد المرض من ثدي مترهل مثل ثديها؟»

أمسيت مستلقية على الأريكة لست واعية بشيء مما يدور حولي، على الطاولة أمامي عدة أدوية وكأس ماء نصف مملوءة، حبوب منع الغثيان، حبوب ضد الإسهال، حبوب لآلام المعدة، لا أحد غيري داخل كل هذا الخواء، الطفلان في المدرسة، زوجي لحق بالعمل بعدما تغيب الفترة الصباحية لأجلي، الرضيع أخذته جارتنا لتلاعبه، تعامله كأنه دميتها أو أحد لعبها المفضلة، منذ مدة تأتي صباحا خاصة حين تعلم أنني على موعد مع الطبيب أو لدي جلسة كيماوي، تطرق الباب تطلبه، تمطره قبلات، تأخذه وحقيبته ولا تعيده إلا مساء، يضحك بقوة، بشدة وبصدق حين يلمحها.

اسمها «أميرة»، عشرينية، تفوح برائحة العطر وتلوّن وجهها بالماكياج الفاقع كأنها مدعوة لعرس أو حفل صاخب مع أنها لا تبرح باب العمارة إلا نادرا. حين يأتيها خبر أن هناك مسابقة توظيف أو مقابلة لمسابقة توظيف، تأخذ ملفها تكثف من عطرها وماكياجها ولكن دون فائدة مرجوة، الحصول على منصب عمل في هذا الوطن يشبه الحصول على كنز مكنون.

طيبة جدا، هكذا يجزم كل سكان العمارة، ومع ذلك لا توجد امرأة تحبها أو ترتاح لها، ربما لأن الجميع تخفن على أزواجهن من سحرها الذي لا تتوانى أبدا عن إظهاره، مزعجة بالنسبة لهن وتصبح أكثر إزعاجا حين تطلق ضحكتها الماجنة على الدرج دون أن تراعي غيرة أية واحدة منهن، تمضغ العلكة بطريقة إباحية تشكل الكثير من البالونات وتجعل «محمد» يفقأها بأصابعه الصغيرة وهو يقهقه مغمضا عينيه.

ابني حين يضحك من كل قلبه يغمض عينيه، أحببتها في البداية لأنها جعلته يضحك حتى يغمض عينيه، أثنيت كثيرا على صنيعها معه ومعي.

حاليا بت أرتاب منها، أصبحت مثل بقية نساء العمارة، خاصة أنني لمحتها عدة مرات واقفة مع زوجي على الدرج وقد كان يضحك حتى يغمض عينيه وهي تتحدث إليه، أحببته بقوة وبصدق لأجل ضحكته، ضحكته التي اختفت منذ زمن وها هي تعود قوية منعشة على الدرج معها.

إنها مجرد تخيلات، أجابني منتفضا حين حاصرته بشكوكي.

اضطررت أن أكتم غيظي وأن أكبِّر عقلي، وأن أقنع نفسي أن كل هذا مجرد هلاوس كما أخبرني.

صلعاء، حاجبان ذهب نصف شعرهما، ثدي مبتور ترك قلبا معرى، كدمات على مرفقي من أثر الحقن، جسد يهزل ويضمحل يوما بعد الآخر، بشرة صفراء، أبكي أغلب الوقت، وفوق كل هذا

الكثير من النصائح والإرشادات أتلقاها من أصحاب النوايا الطيبة والخبيثة، هذا حالي وهذا وضعي.

أنا مقارنة بها لا أعدو عن كوني عجوزا شمطاء.

بيتي، مملكتي تضيع مني يوما بعد الآخر، أفكر هل سأفوز بعد كل هذه المعارك، أتذكر «سماح» التي تخبرني باستمرار أن على المرء التسليم بالخسارة كما الابتهاج للرّبح ، دوما هناك احتمالان لاثالث لهما.

في هذه الحالة بالذات أريد احتمالا واحدا أريده بنسبة مطلقة، لكن ماذا لو كانت النسبة المطلقة للخيار الذي لا أريده، لفشل كل ما أحارب من أجله؟

«زوجيهْ، خيري لهْ المرا نتي، عالأقل تكوني تعرفيها خير من يجيبلكْ وحدهْ تمرمدْ لولادْ».. نصحتني إحداهن.

لم أجد شيئا أرد به عليها، سوى الصمت وتأمل الكلمات تخرج من بين شفتيها، كان طعمها مرا جدا.

«بنات الحلال بزافْ يا بنتي، تجيبيها تتهلى فيه وفلولادْ وفيك نْتي تاني».

ولأن صمتي استمر، حسمت حديثها بحوصلة مؤلمة:

هذا حقهُ، الشرع أحل له أربعة، والعذر الشرعي موجود، من حقه أن يعيش حياته. علاه تغبنيه مازال صغير مسكين؟

مسكين؟

مسـكين لأن الـشرع والمجتمـع والأعـراف والصحـة كلهـا تقـف إلى جانبـه؟

مـا ذنبـي أنـا، هـل أنـا مـن اسـتحضرت المـرض ليغتصـب جسـدي، ثـم يدخلنـي في تيـه العـلاج، هـل أنـا مـن أوصلـت الوضـع إلى مـا هـو عليـه؟

الله لن يغفر لك وقوفك أمام إحدى حقوق زوجك.

وهـل سـيغفر لـك التفـوه بمثـل هـذه الكلـمات أمامـي؟ هـل وكلـك اللـه لتكـوني محاميتـه للمرافعـة ضـدي؟

أسـتغفر اللـه، اسـتغفر اللـه. قالـت وكأن كلـماتي خرجـت مـن بـين شـفتيْ زنديـق، بينـما كلماتهـا كان يلوكهـا لسـان شـيخ طاهـر عفيـف.

13

بـتّ عـلى يقـين تـام أن آخـرتي قـد دنـت، أراهـا تبتسـم لأجـلي، تمـد يدهـا وتشـجعني عـلى أن أمـد يـدي بالمقابـل، كي تسـحبني بهـدوء مـن كل هـذا الضيـاع الصـارخ.

كان طابـور الأشـياء المعلقـة التـي كنـت أنـوي، أو سـأنوي إنجازهـا أطـول طابـور، ولـو أنـه شُـجّع يومـا وحُفِـز عـلى المشـاركة في مسـابقة مـا، لحطـم الرقـم القيـاسي ونفـخ ريشـه متباهيـا باللقـب الـذي أحـرزه، « أطـول طابـور شـهده الواقـع والخيـال».

أشرح لزوجـي كيفيـة قلـع الأسـنان الحليبيـة حتـى لا يقـع كالأبلـه محرجـا متذمـرا مـن جهلـه وهـو يمـد أصابعـه الغليظـة داخـل فـم «ماريا» الصغـير كي يقتلـع لهـا مـا لم يقتلـع بعـد.

أكتـب لآدم كيفيـة تحضـير الشـعيرية بالحليـب، رغـم أنهـا أكلـة سـهلة التحضـير لكنهـا بـدت معقـدة وأنـا أفكـر في قدميـه الصغيرتـين تحملانـه أمـام الموقـد ويديـه الأصغـر تحـركان مـا بداخـل القـدر، لـو كنـت أمتلـك المزيـد مـن الوقـت لكنـت علمتـه إياهـا، سـأكتفي بالكلـمات الآن عـلى شـكل وصفـة وسـيفهمها يومـا مـا.

اللائحـة طويلـة تلـك التـي سـأكتبها لزوجـي، كي أذكـره وأعيـد تذكـيره بالأشـياء نفسـها كـما جـرت العـادة، ربمـا عـلي تسـجيلها بصـوتي كي يعيدهـا هاتفـه كببغـاء ليـس لديـه سـوى هـذه اللائحـة ينشـغل بهـا.

...أخـرج القمامـة قبـل آذان المغـرب أي قبيـل مجـيء عـمال النظافـة وشـاحنة نقـل القمامـة.

...أغلـق منفـذ الغـاز قبـل الخلـود إلى السريـر للنـوم تجنبـا لأي حـادث أرعـن يـأتي عـلى الأخـضر واليابـس.

...تسـلح بالصـبر حـين يخطـئ آدم في تهجئـة نفـس الجملـة بالفرنسـية أكـثر مـن مرتـين.

...ضـع أعصابـك في ثلاجـة حـين تعيـد «ماريـا» نفـس السـؤال مئـة مـرة.

...تظاهــر بالفــرح واصطنــع البهجــة حــين يأتيــك كلاهــما بنتائــج مدرســية مخيبــة لآمالــك.

...حاول ألف مرة ولا تيأس حتى تعرف سر البكاء المفاجئ لمحمد.

تبـدو اللائحـة قادمـة مـن السرمديـة متجهـة نحـو الأبديـة، هـل يسـتطيع تقمـص دور الأم، والقيـام بجميـع هـذه الأعـمال البسـيطة ...؟

حسـنا باسـتطاعته أن يتقمـص دور قنفـذ بحـر، أو بـذرة فاصوليـا داخـل أصيـص عـلى إحـدى الشرفـات المنسـية إن تطلـب الأمـر، لكـن دور الأم سـيكون المسـتحيل الثامـن ولا شـك!

هـل أرضـخ للأمـر الواقـع وأبحـث لـه عن زوجـة ترعـاه وترعـى أبناءه؟ ثـم لمـاذا البحـث؟ صاحبـة العلكـة متوفـرة وبشـدة. لا، ليـس الآن، أريـد أن أمـوت بسـلام ثـم فليفعـلا مـا يحلـو لهـما.

- لماذا تزوج أبي بعد وفاة أمي مباشرة؟

- الرجل لا يمكنه أن يكمل حياته دون زوجة.

- لكن لماذا تستطيع المرأة إكمال حياتها دون رجل، لا بل وتسعى أن تقدمها بكل سخاء قربانا لأطفالها.

- ببساطة، لأنها أم تجيب جدتي.

- ولكنه أب هو أيضا.

- الأمر مختلف، أعزب دهر أرحم من أرمل شهر، تقول هذا وتتنهد، ثم تضيف، ستفهمين حين تكبرين.

كبرت ولم أفهم شيئا، بل حتى الأمور التي كانت تبدو ساذجة أصبحت جد معقدة وعسيرة على الفهم.

14

ماما، أريد إخبارك بأمر مهم، قالت «ماريا» وهي تجذبني من طرف فستاني حين كنت منشغلة بغسل الأواني ومستغرقة في التفكير.

أحنيت قامتي لأجلها قربت وجهي من وجهها وقلت بنفاذ صبر: ليس الآن حبيبتي، اذهبي إلى غرفتك وأنجزي واجباتك ريثما أنتهي.

- الأمر مهم، كررت.

- قلت اذهبي، حسمت الأمر بلهجة مغتاظة.

لا يوجد ما هو أهم من مصيبتي الجديدة التي حلت فوق رأسي.

كل تفكيري منصب على كارثة «آدم»، الطفل النجيب الذي يضرب به المثل في الأخلاق والاجتهاد توبخه المعلمة وتوبخني معه.

قالت جدته حين قصصت عليها ما جرى أن عين حسود مسته، وأنه علي أن أرقيه في أقرب وقت، وعلي أن أرقّي نفسي أنا الأخرى كي تهجرني المصائب والمحن.

أرسلت المعلمة استدعاء باسمي منذ أسبوع، لكنه لم يسلمني إياه، بل جاهد كي يخفيه عني ولا شك.

-لماذا أخفى الأمر عني؟ هل خاف أن أقرعه، أوبخه، أو أضربه؟

ولكنني لم أكن لأفعل كل هذا، أجبت نفسي الحائرة على أسئلتها وأضفت، ربما لم يرد أن يشغل بالي.

اليوم صباحا طويت ورقة الاستدعاء، دسستها داخل حقيبة يدي، رتبت هندامي أو حاولت ترتيبه، رسمت حاجبي بقلم بني أردت أن يبدوا أنهما بخير أو بالأحرى أنني بخير. حشوت الجهة اليسرى من صدري بجوربيْن بعدما قمت بتكويرهما جيدا، الآن أبدو طبيعية، أعتقد انه علي أن أمتثل لنصيحة «هالة» وأقتني ثديا اصطناعيا، لقد بات الأمر ملحا.

قبل أن أرسل بقدمي خارج باب المنزل، عدت صوب المرآة التي كنت قابعة أمامها قبل لحظات فقط لأتأكد أن كل شيء يبدو على ما يرام، أنني أنا.

جلست داخل مكتب المديرة أنتظر مجيء معلمة ابني، كنت أعصر أصابعي، لم يسبق أن استدعتني يوما، كنت آتي بمحض إرادتي أوقات الزيارات المسموح بها للأهل وأسأل عن مستواه وعن أخلاقه داخل القسم، كانت في كل مرة تضحك وتقول لي بأنه لا داعي لمجيئي من الأساس، إنه مثل المسطرة، وأخلاقه لا يعلى عليها.هل انكسرت المسطرة؟

- ابنك يشبهك كثيرا، قالت المديرة لإذابة جليد خجلي وصمتي.

رغم أن ملامحي لم تعد هي نفسها، كنت أريد أن أنبهها.

المكتب بسيط جدا، حال مكاتب المدارس الابتدائية وهيكلها ككل، كل شيء فيها بسيط ودافئ.

بعد دقائق خلتها دهرا قضيتها في انتظار المعلمة أتت أخيرا، بادرتها بالسلام وسارعت لتقديم اعتذاري وأسفي لأني لم أر الاستدعاء الذي أرسلته سوى ليلة البارحة.

- عسى أن يكون خيرا؟ سألتها بعد أن أكملت عباراتي السابقة.

- تنهدت، أخذت نفسا عميقا قبل أن تطلق رشاش كلماتها دون توقف:

يا سيدتي، ابنك أصبح عدوانيا بشكل لا يطاق، يتنمر على زملائه، يضرب، والأسوأ من هذا كله نتائجه في الحضيض، تركيزه صفر داخل القسم، شارد الذهن طوال الوقت، لا ينجز واجباته ولا يراجع دروسه في المنزل.

- ابني؟ سألت بسذاجة.

- نعم ابنك، إنه لا يحضر أدواته، أ لم يخطر على بالك أن تفتحي محفظته لتطلعي على حجم إهماله؟ إن أحضر كراس القواعد نسي كتاب الرياضيات، وإن أحضر الأقلام نسي اللوحة. بالمختصر ابنك لم يعد ابنك الذي درسته منذ سنوات. هذه السنة سيجتاز امتحان شهادة التعليم الابتدائي، إنه غير مهتم بالمرة لما ينتظره. وربما حتى أنت غير مهتمة.

كانت كلماتها تنساب كسم قاتل داخل جسدي، تمنيت لو كان بحوزتي زر خارق أضغط عليه يجعلها تتوقف عن إضافة كلمة واحدة، مع كل جملة كانت تتفوه بها كانت المديرة تحرك رأسها بالموافقة وكأنها تعيش معها داخل القسم.

أصرت أن تختتم بطلقة قاتلة:

ابنك، أنت المسؤولة عن ضياعه.

أنا المسؤولة عن كل الخراب، منذ لحظة الفحص البسيط حتى ضياع أسرتي وتشتتها.

بدوت أمامها طفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها ارتكبت ذنبا أكبر من حجمها ومن سنها وتنتظر التقريع والعقوبة الملائمة.

أكملت غسل الأواني وتنظيف المطبخ، خمنت في تحضير كعكة صغيرة أفاجئهم بها غدا صباحا على الفطور لكن «ماريا» عادت بعد أن غابت عن وجهي نحو نصف ساعة، تحمل ورقة في يدها اليمنى وتفرك فروة رأسها باليسرى، كانت تصدر صوتا مزعجا جدا لكنني تعودت عليه، تأقلمت مع هذه العادة التي اكتسبتها منذ أسابيع. سلمتني الورقة وقالت بصوت رغم طفولته إلا أنه بدا حازما:

- ماما تفضلي، الأمر مهم.

- ما هذا؟ سألت.

- رسالة، افتحيها.

ابتسمت لها أخيرا وفتحت الورقة، منذ تعلمت الكتابة وهي تعبر لي عن مشاعرها عن طريق الرسائل، قصاصات ورق تنتزعها من دفاترها وتكتب لأجلي جملا بريئة مفعمة بالأحاسيس الصادقة، حتى عندما كانت ترتكب خطأ ما تؤثر أن تعتذر لي عن طريق رسالة بريئة عذبة.

قدماي عاجزتان عن حملي، أما الدوار الذي شعرت به فقد كان يلح علي لاستعجال البحث عن أقرب غرض أستند عليه، ساعدتني بيديها الصغيرتين بأن أخرجت كرسيا لأجلي من خلف الطاولة وساعدتني على الجلوس، كانت نظرتها بريئة وجارحة جدا، نظرتها وأنا أقرأ الورقة أدمت قلبي أكثر من الكلمات التي احتوتها الرسالة.

زوجي يتعرى مني يوما بعد آخر، لم أعد الغطاء الذي يدثّره ولا المأوى الذي يهرب إليه كما كان الحال، بسبب عصبيتي ومزاجي الذي يتقلب كل دقيقة ساعدته لكي يفرَّ مني ويغرس وجهه وكل تركيزه في جهازه المحمول، أو ينتظر اللحظة التي يرى فيها جارتنا «أميرة» عند الدرج كي يضحك بكل صدق، يضحك بعينين مغمضتين.

أريده أن يفهمني دون أن أتفوه بحرف أو أشرح له كلمة، كنت أعتقده قادرا على قراءة ما لا ينطق، على معرفة موطن الألم، معقل التشنجات النفسية. المسكين، كما تصفه والدته، لا يملك كرة المنجمين السحرية التي يستطيع من خلالها قراءة داخلي.

نظـرة واحـدة مـن عينيـه سـتكون كفيلـة بـأن تعيـد عجنـي ونحتـي مـن جديـد، بـأن تحيلنـي إلى عصفـورة واثقـة بـأن جناحيهـا مهـما عرجـا بهـا عـلى أكـثر الأنفـاق ظلمـة وعفونـة، سـيصلان بهـا في النهايـة إلى حيـث متسـع مـن الأمـل.

نظـرة واحـدة كالتـي أصبـح سـخيا بهـا مـع صاحبـة العلكـة، نظـرة رجـل لامـرأة مكتملـة الأنوثـة.

كنـت أتأملـه وهـو غـارق في الـلاشيء، لم يذهـب إلى العمـل لأجـلي، لكنـه بعيـد عنـي، بـين جسـدينا ميـل واحـدٌ وبـين قلبينـا آلاف الأميـال، لم أجـد حتـى الآن طريقـة مناسـبة كي أفاتحـه بأهـم المسـتجدات.

يعيـش أسـوأ تجاربـه، بعـد أن كنـا نعيـش الرتابـة حتـى خيـل إلينـا أننـا خلقنـا لنعيـش بهـذا النظـام، أدخلـه معـي أحـراش الانتظـار والترقـب، انتظـار المـوت معـي وترقـب مـا بعـده بـدوني.

تشـاجرت معـه للمـرة العـاشرة بعـد الألـف أو المليـون، أخبرتـه أني أحـس أن أمـري لا يعنيـه، كنـت أعـرف أنـه مهتـم إلا أننـي كنـت أسـتفزه ليتـضرع محـاولا خربشـة الصـورة السـيئة التـي أحملهـا لـه داخـل رأسي كـزوج سيء، الضغـط عليهـا تمامـا مثلـما كنـا نضغـط عـلى كلمـة مـا بالقلـم الجـاف حـين نـرى أنهـا مشـينة بحـق طفولتنـا، نضغـط بقـوة حتـى نمحـوَ أثرهـا نهائيـا.

«قل لي - ولو كذبا - كلاما ناعما....»

يـتردد صـوت شـاعر المـرأة داخـل رأسي، مـن أيـن كان يـأتي بسـيل الكلـمات الرقيقـة؟

«قد كاد يقتلني بك التمثالُ»

صمته، اللغة التي يحترفها!

لا تجرحي التمثال في إحساسه

فلكم بكى في صمته.. تمثالُ..»

لقـد بعثرتنـي أحجيـة المشـاعر والأحاسـيس، لم أعـد أعـرف منهـا سـوى أننـا كائنـات هشـة، وأن المـرض جعلنـي الأكـثر هشاشـة عـلى الإطـلاق، أبحـث دائمـا عـن كلـمات تلملـم بعـثرتي، عـن عبـارات تسـد الثقـوب وترمـم التصدعـات والتشـققات التـي تطوقنـي، عـن زخـات مـن الأمـل تسـقي تربـة قلبـي وعـن شـمس دافئـة تجفـف الوحـل الـذي يغـرق فيـه وتمـدني بالكثـير مـن الأرجـل الشـفافة التـي تزيـد مـن متانـة تشـبثي بـالأرض التـي أقـف عليهـا.

أنـزوي بنفـسي بعيـدا عنـه وعـن أطفالنـا الثلاثـة، أديـر مفتـاح بـاب غرفتـي وأعيـد قـراءة الرسـالة التـي أرسـلتها معلمـة ابنتـي للمـرة المئـة، أبحـث بـين السـطور عـما يمكنـه أن يشـفع لي، لكـن لا أجـد سـوى عبـارة «لا يحـس بالجمـرة إلا مـن جعلتـه يكتـوي بحرارتهـا»

هـل كانـت عـلى علـم وهـي تـرص كلماتهـا المسـمومة أنهـا سترسـلها إلى مسـخ لا حـول لـه ولا قـوة؟

«السلام عليكم سيدتي،

لم أجـد خيـارا آخـر سـوى مراسـلتك، لقـد تقصيـت عـن وضعـك الصحـي وأنـا جـد آسـفة لمـا آل إليـه حالـك، لكـن يـا سـيدتي الكريمـة رجـاءً، هـذا لا يمنـع مـن أن تهتمـي بالنظافـة الشـخصية لابنتـك «ماريـا» وبالتـالي تسـاعديننـي كي أحافـظ عـلى نظافـة قسـمي، أنـا أعـذرك لكـن لا أحـد سـيعذرني إن سـمحت للقمـل أن يتعـدى حـدود رأس ابنتـك إلى بقيـة رؤوس زملائهـا.

حـاولي سـيدتي، لقـد أرسـلت لـك بعـض الأدويـة سـتعينك عـلى التخلـص مـن القمـل الـذي إن لم تحاربيـه سـأضطر لعزلهـا عـن الجميـع.

لا أريد متاعب مع أولياء أمور زملاء ابنتك ولا مع الإدارة.

شفاك الله..»

حاولـت أن تكـون مهذبـة لكنهـا لم تسـتطع، أو هـذا مـا استشـففْته مـن عباراتهـا.

كنـت قـد فتحـت حقيبـة «ماريـا» ووجـدت بهـا قارورتـين مـما أسـمته بالأدويـة التـي أرسـلتها لي، محتواهـما لا يختلـف عـن مبيـدات الحـشرات، كيـف سـيتحمل جلـد أمـيرتي الصغـيرة كل هـذا؟

إذن القمـل يجتـاح شـعر ابنتـي المتمـوج الطويـل، المسـتباح اسـتباحة روحـي، يبـدو أن الأكل الـذي تتناولـه يصعـد إلى شـعرها ليغذيـه بـدل أن تنـزل منـه كميـة إلى معدتهـا بهـذا أفـسر دائمـا بقاءهـا نحيلـة، هـذه الحـشرات تنتـشر مثـل جيـش مخربـين، مختلفـي الحجـم والشـكل، اسـتقر بقواعـده عـلى فـروة رأسـها الغضـة الطريـة، وجـد الحريـة ليسـتبيحها

ويعربد كما يشاء، انتقلت العدوى بسهولة، لا يهم إن كانت من المدرسة أو من مكان آخر، لا يهم إن كان فعلا بسبب إهمالي

أم ألقي بكل هذا على الظروف علني أرتاح قليلا من وخز الضمير. لا يهم أيضا كم فتاة ستنتقل لها العدوى عن طريق صغيرتي البريئة ، تشبهني في عنادها، وتشبه والدها في هدوئه وهروبه الدائم من إيجاد حلول جذرية لكل مشكلة، لم يعد للمشط القدرة على اختراق خصلات شعرها، كان المقص هو الحل الوحيد والأنجع، بعدما راوغتها وضحكت عليها حين أقنعتها بأنني سأقص لها شعرها مثل Dora

قواي تنهار وأنا أرى كل هذا الخراب، ابني عدواني، تصلني شكاوى يومية من معلمته التي تشتكي تنمره وتراجعه الكبير في دروسه، لم يعد يهتم إذا أضافت له نقطة أو سحبت منه عشْرا، الصغير استبدلني بجارتنا، التي لا تتوقف عن مضغ العلكة، تصنع منها بالونات كبيرة وتتركه يفقعها، يقهقه، تضحك ضحكات ماجنة، يطلب منها ماما أعيدي، أصبح يناديها ماما، تجلسه على ركبتيها، تحضنه إلى صدرها، وتضحك بصوت عال، تحضر له أكلات طيبة، تسمح له بأن يختبئ خلف الستائر وتوهمه أنها تبحث عنه لأكثر من ساعة دون أن تكل، تجعلني أحس بعجزي، وتجعله يضحك كثيرا مغمضا عينيه، تثور ثائرتي كلما امتدحها زوجي وشكر صنيعها مع الولد، الخوف من أن تسحبه هو الآخر، أصبح حقيقة وليس مجرد هواجس .. خيانته لي

باتـت وشـيكة لقـد رأيتهـما هـذا الصبـاح يتبـادلان التحيـة والكثـير مـن النظـرات.

«أنت تتخيلين..».

قالهـا غاضبـا بأعـلى صوتـه، بعينـين جاحظتـين، وجـه أحمـر قـان وعـروق رقبـة تـكاد تنفجـر.. -ارحمينـي مـن شـكوكك. أضـاف حـين حاصرتـه بأسـئلتي قبـل أن يصفـق البـاب ليتركنـي أتخيلهـا تمضـغ العلكـة بطريقتهـا الماجنـة تشـبك يدهـا بيـده، يصعـدان الـدرج حيـث شـقتها وهـو يشـكوني لهـا ويتطلـع إلى الجـزء المكتمـل لديهـا، الناقـص لـدي، لتتركنـي أمضـغ عجـزي وأتقوقـع في وحـدتي.

ماذا بعد؟

صحـن آخـر تحملـه جـارتي «كريمـة» بـين يديهـا حـين فتحـت البـاب بعـد عـدة طرقـات متسـارعة، كانـت تبتسـم وكأنهـا أتتنـي بالعـلاج. نعـم، كلـما أتـوني يحتضنـون شـيئا يبتسـمون ابتسـامة التمنـن.

ادخـلي، تفضـلي، قلـت حـين انتبهـت إلى أن ابتسـامتها طالـت عنـد البـاب.

كان الوقـت بعـد الظهـر بقليـل، زوجـي عـاد إلى العمـل، «ماريـا» و»آدم» إلى المدرسـة وأنـا كنـت -قبـل أن تـأتي- مسـتلقية بجانـب «محمـد» ألاعـب أصابعـه الصغـيرة. وبعـد أن أفـرغ الرضّاعـة في بطنـه، جشّـأته ونـام.

كيـف حالـك؟ سـألتني وهـي تتقدمنـي وأنـا أتبـع خطواتهـا وكأنهـا صاحبـة البيـت وأنـا ضيفتهـا.

الحمد لله، أجبتها كما صرت أجيب دائما.

اِتّجهت مباشرة نحو المطبخ، لقد أصبحت تعرف طريقها جيدا، سبق وتطوعت كثيرا لتحضر قهوة للضيوف الذين كانوا يعودونني حين أجريت العملية الجراحية، لا يتعبها تقديم الخدمات من هذا النوع ما دام الأمر سيمكنها من معرفة كل صغيرة وكبيرة وسبر أغوار البيت الذي تدخله، هوايتها المحببة إلى قلبها.

وضعت الصحن على الطاولة، واتجهت مباشرة صوب درج الخزانة لتحضر ملعقة، كانت تعرف مكانها وكأنها وضعتها بيديها، قالت مبتسمة:

-تفضلي . تناوليها قبل أن تبرد.

كنت أسند كتفي إلى الباب وأطوي يدي أراقب حركاتها وتصرفاتها.

ما هذا؟ سألت بنفاد صبر.

سحبت الغطاء عن الطبق وقالت:

-شوربة. شوربة باللحم، أضافت متلكئة.

لكنني حاليا ممتنعة عن تناول اللحم منذ مدة، وأنتِ سبق وأخبرتني بنفسك أن اللحوم ممنوعة وأنها تحتوي على نسبة عالية من البروتين وأ..

قبل أن أكمل جملي قاطعتني:

-ولكن هذا ليس أي لحم.

- لم أفهم، ماذا تقصدين بأنه ليس أي لحم؟

- لحم ماذا؟ أجيبيني. سحبت هدوئي حين توجست أنها تخفي خلف سكوتها أمراً مريباً. هذه المرأة تصر أن تزيد نفسيتي سوءً.

- لحم كلاب.

- لحم كلاب؟

شوربة بلحم الكلاب، يقال أنها الدواء الشافي لمرضى السرطان، ابنتي البكر قرأت المعلومة على الفيسبوك، قالت أنه تم نشرها في إحدى المجموعات المخصصة للنساء، تدبرت أمري وعملت ما في وسعي وها قد حصلت على لحم الكلاب خصيصا لأجلك.

راحت ترغي وتزبد، تشرح وتعيد، وتذكر تفاصيل لا تهمني البتة وراحت الأرض ترتج تحت قدمي، والأشياء تتقارب وتتباعد أمام عيني.

اقتربت من الصحن، معدتي عادت لاضطرابها بعد سكونها خلال اليومين الفارطين، حملت الصحن بين يدي، رفعته أعلى رأسي، وبقوتي الواهنة ضربته على البلاط، المطبخ أصبح لوحة سريالية، قطع اللحم متناثرة بعشوائية خيِّلَ لي أنها تنبح وتحتج على تصرفي وربما لو اقتربت منها لقامت بِعضّي ونهش لحمي، المرق متناثر على البلاط، وبعض منه على باب الثلاجة التي نظفتها صبيحة اليوم فقط والحائط المجاور.

قالت «كريمة» بعد أن أزاحت يدها عن فمها بعد هول الصدمة:

-هـداك اللـه. الحـق ليـس عليـك بالأسـاس، الحـق عـلى الخرقـاء التـي تدعـى «كريمـة»، أنـا التـي فكـرت في مسـاعدتك.

- لم أطلب منك شيئا، ثم لماذا لم تأكليها أنت؟

- أنتِ المريضة ولست أنا، قالتها باستهتار جارح.

أنـا المريضـة التـي عليهـا أن تجـرب كل عـلاج تسـمع عنـه حتـى ولـو بـدا غـير منطقـي. فقـط لتعيـش، أتسـتحق الحيـاة كل هـذا القـرف؟

الأدب مـع أمثالهـا لـن يزيدهـم سـوى وقاحـة، لذلـك اتجهـت صوبهـا، حيـث لازالـت واقفـة تتحـداني، أمسـكتها مـن يديهـا ودفعتهـا طـاردة إياهـا.

لم تسـتوعب مـا أقـوم بـه، كانـت مشـدوهة، ملامـح وجههـا يصعـب تفسـيرها وأنـا لا أزال ممسـكة بيدهـا وأدفـع بهـا نحـو البـاب الخارجـي للشـقة، ولـكي تكمـل معروفهـا قـررت أن تـترك لي ندبـة في قلبـي قبـل أن تنـصرف.

معـه حـق زوجـك أن مـلّ مـن مختلـة مثلـك، معـه كل الحـق أن ضـاق ذرعـا بامـرأة مريضـة مهـزوزة، الآن أتفهمـه جيـدا وأعـذره حـين اختـار ابنـة العشريـن واسـتبدلك بهـا. ورفعـت سـبابتها إلى الأعـلى، في إشـارة إلى صاحبـة العلكـة فـوق.

بعـض الأشـخاص يتقنـون تقمّـص الأدوار الحقـيرة، يجيـدون الأذيـة، يعرفـون الطريـق السـالك للوصـول إلى لـب الجـرح وسـكب ملـح حقدهـم بسـخاء.

ألقت سمها دفعة واحدة ونزلت الدرج بكل هدوء.

ابنـة العشريـن، صاحبـة العلكـة؟ إحسـاسي إذن كان في محلـه؟ الأمـر ليـس مجـرد تخيـلات كـما أوهمنـي زوجـي، لقـد سـمحتُ للميـاه أن تجـري تحـت قدمـي، لقـد سـاعدت الجميـع عـلى أذيتـي كل بحسـب مـا اسـتطاع.

مـن الضحيـة بالضبـط، أنـا أم هـم؟ أم أننـا جميعـا ضحايـا لعبـة القـدر؟

15

ليس لدي اليوم أي انشغال عدا بعض أعمال البيت الروتينية، إجازتي في العمل ممددة إلى أجل غير محدد.

بالي مشغول بسعيدة، اتصلت بها مرارا لكن هاتفها مغلق طول الوقت، «سعيدة» صديقتي العشرينية صاحبة الضحكة البريئة المتفائلة، تعرفت عليها مؤخرا حين شغلت سرير إحدى المريضات بعد أن ودعتنا هذه الأخيرة، ودعت قبيلة الآمازونيات وارتاحت من رحلة الكيماوي.

استغربت صاحبة الأسئلة الساذجة كيف مرضت سعيدة كونها شابة ولم تتزوج بعد، سألتني ببراءة: أ لم يخبرونا أن المرض لا يصيب سوى المتزوجات بسبب حبوب منع الحمل؟

منذ جلستها الأولى بدت هادئة ومتفائلة، أخبرتني أنها تريد أن تنهي جلسات الكيماوي بسرعة لأن فرحتها عند آخر الطريق تنتظرها.

تتحرش كلماتها بذاكرتي فأعيد الاتصال، لكن دائما نفس الصوت: «إن جهاز مراسلكم مغلق أو خارج مجال التغطية».

قالت أن خطوبتها ستتم بعد الانتهاء من العلاج الكيماوي وعودة شعرها إلى ما كان عليه، ولكن بشرط، «لكن» هذه التي تأتي بعد فيض من الأمل تربكني، ترعبني، وتعيد قلب كل الجمل التي سبقتها.

سألتها عن الشرط الذي وضعه خطيبها، عما بعد «لكن» فأجابت بسذاجة وثقة أنه طلب منها أن تزرع ثديا حقيقيا.

تزرعين ثديا حقيقيا؟ سألت باستغراب.

نعم، هكذا طلب مني، ووعدني بأن كل شيء سيكون على ما يرام، حتى ولو لم أنجنب. تخيلي.

قالت تخيلي وابتسمت ممتنة وكأنه يقدم لها معروفا عظيما، أو يقدم تنازلا خارقا.

كانت تتحدث بهدوء وبالكثير من الأمل، لكنني كنت أقلّب الوجه الآخر للقصة، الخذلان.

أرى انكسارها يمتثل أمامي كما أرى ضحكتها الهادئة الآن.

ابتسمت لأجلها وقلت: ستكونين أجمل عروس.

لم تعلق بكلمة، فقط أغمضت عينيها بهدوء، وراحت تتخيل على الأرجح شكلها وهي أجمل عروس.

متى ما وضعنا الحب في قوالب الشرطية لم يعد يسمى حبا، سيصبح صفقة جافة بين تاجرين أحدهما على الأغلب طيب مبتدئ، أما الآخر فمتمرِّس جشع.

في الجلسة الماضية اضطر الطبيب لإيقاف العلاج معها، كانت متخشبة، ضحكتها باردة، لم تكن «سعيدة» التي حضرت أول وثاني جلسة بتفاؤل تحسد عليه.

أخبرتني أن خطيبها اعتذر وأضاف أنه غير مستعد لخنق حياته ومستقبله من أجلها، مع مثلها.

قالتها بكل برود، لم تنزل منها دمعة واحدة، وكأنها تتحدث عن قصة شخصين لا تعرفهما.

لم أجد الكلمات المناسبة لمواساتها، أحسست أن كل كلمة سأتفوه بها ستكون قاصرة عن ترقيع شرخ قلبها.

قرأت علي بعضا من رسائل الحب والتشجيع التي كان يرسلها لها لأجل شحذ عزيمتها، لقد وثقت بي للدرجة التي شاركتني كلماتهما الحميمة.

أتساءل الآن في أي مقبرة تُدفن المشاعر، اللهفة، كلمات الشوق، الحب، الانتظار، وكل الأحاسيس التي كانت بينهما أو بين كل عاشقين قبل أن يفترقا؟

أي قبر يمكنه أن يضمَّ كل الذي سبق دون أصحابه؟

لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نسأل شخصا لماذا أدار ظهره؟ ليس من حقنا البتة أن نطلب من الآخر أن يكون بقدر وفائنا، ربما لا يمتلك الجلد الكافي ليكون عند حسن ظننا.

شكلت رقمها مرة أخرى، أخيرة، لكنها لا ترد.

تركت الهاتف من يدي واتجهت صوب المطبخ حين اقتنعت أنها ولا شك تكون في خلوة مع نفسها وأننا سنلتقي في جلسة الغد وسأطمئن على أحوالها.

كنت أظن أن حالي هي الأسوأ وأن وصولي إلى الجلسة الخامسة أفقدني كل معالمي حتى التقيت صاحبة الأسئلة الساذجة، بدت كشبح، كميت استغفل حارس المقبرة وهرع فارا خارج قبره، رأسها معصوب بقطعة بيضاء تغطي نصفا من جبينها الذي كان يبدو لفرط كبره ملعبا، من على الفوطة البيضاء يتدلى حجاب أبيض هو الآخر، نقي مثل روحها، اختلط اللون الأسود بالأزرق على بشرتها التي كانت تبدو في السابق كأنها قضت سنوات منقوعة في الحليب، استغلت التجاعيد ضعفها وهوانها لتعلن العصيان، لتتمرد على الوجه الطفولي الأملس الذي كان يشبه حبة بيض مسلوقة ومقشرة، عيناها الغائرتان أصبحتا كحفرتين مظلمتين داخل رأسها بل واختفتا تقريبا، اكتسحت التجاعيد وجهها بالكامل، لا أدري إن كانت عرته أم غطته، الأهم من ذلك كله أنها مسحت ملامحه واستبدلتها بأخرى غريبة تماما عنها.

بدأ صبر المرضة ينفد وهي تبحث في ذراعها الممدود عن شريان يمكنها أن تحقنها من خلاله، جسدها المصفاة لم يعد يحتمل ثقب جديد، أسنانها بدت بارزة أكثر، استغلت هي الأخرى ضعف شفتيها لتضفي نوعا من التواطؤ مع التجاعيد والزرقة، ابتسمت لي وهي تطالعني تنظر إليّ بعينيها المخبأتين داخل الحفرتين المظلمتين، برزت أسنانها أكثر، أكثر من أسنان مصاصي الدماء، رجوتها في سري أن تتوقف، أن لا تبتسم، تمنيت لو احتفظت بتلك الابتسامة المغتصبة لشخص غيري، لزوجها مثلا الذي لا يتوقف عن النحيب لأجلها، الذي بقي وفيا لها أكثر من ست سنوات رغم أنها لا تنجب، والآن يصارع أكثر ليبقى الأوفى وهي تصارع الموت، امتلأت عيني بالدموع،

أدرت وجهي للحائط قبل أن أسمح لها بخداعي والتواطؤ مع هذه المسرحية المأساوية التي لا يراد لستارها أن يسدل أبدا.

- هل سننجو؟ سألتني.

بماذا أجيبها أنا بالذات؟ كان هذا من بين أهم الأسئلة الخالية من الطرفة التي نادرا ما تطرحها.

- إن شاء الله، بكل تأكيد، لم يتبق لي ولك سوى جلسة واحدة وسيكون كل شيء على ما يرام.

- بإذن الله، رددت، وابتسمت لتعذبني أكثر بابتسامتها.

أتطلع إلى اللاشيء وأعيد طرح سؤالها على نفسي: هل سننجو؟

بدا الطبيب مثل يسوع شافي الأسقام ومبرئ المرضى، جل العيون ترى فيه المخلص والمنجي. كانت هذه النظرات التي تطوقه بها أعيننا تشعره بعبء كبير ومسئولية ضخمة. الحلبة تزداد احتقانا أكثر من أي وقت مضى، أرقام مروعة في انتظاره يوميا، الحلبة تكتظ وتتعاظم مقابل جسده الهزيل وأسلحته البدائية الساذجة التي لا يملك بديلا عنها لمحاربة مكر ومهارة هذا الثعلب.

الثعلب يمضغ جسدي بترو، ساعده في الهضم صاحبة العلكة وضحكتها الإباحية، زوجي وصغيري «محمد» اللّذين استطاعت أن تستميل قلبيهما وتجعلهما يضحكان مغمضي العينين، جيش القمل الذي يعربد داخل فروة رأس «ماريا»، العلامات المتدنية والتراجع الرهيب لآدم في دراسته وأخلاقه على حد سواء.

لم يتبـق مـن جسـدي سـوى مضغـة صغـيرة بإمكانـه أن يلوكهـا في ثـوان، لكنهـا مـصرة عـلى المقاومـة، عازمـة عـلى الوصـول إلى هدفهـا، خـط النهايـة. لـكل بدايـة نهايـة، وكل نهايـة هـي بدايـة جديـدة.

لا أزال مسـترخية عـلى السريـر في القاعـة التـي نتلقـى فيهـا الكيـماوي، «سـعيدة»غائبة اليـوم عـن جلسـتها، لم تـأت لأسـألها عـن جديدهـا، في آخـر مـرة التقينـا فيهـا لم تكـن عـلى مـا يـرام، أفكـر في الأمـر فأرتبـك أكـثر.

يتنقـل الطبيـب مـن مريضـة إلى أخـرى ليتأكـد مـن سـيرورة قطـرات المحلـول وانسـيابها تفاديـا لحـدوث أي مشـاكل، بـين جلسـة وأخـرى كان ينتفـض أحـد الأجسـاد رافضـا الـدواء ومعلنـا العصيـان، يحـدث في القاعـة مـا يشـبه حالـة الطـوارئ، يسـارع الطبيـب إلى إيقـاف العـلاج، وتنشـغل الممرضـات بإعـادة مراقبـة أكيـاس المحاليـل لباقـي المريضـات، يخيـم الخـوف، ثـم الوجـوم، ثـم يطبـق الصمـت عـلى القاعـة في حـين يـأتي أحـد أفـراد العائلـة ليحمـل المريضـة وجسـدها بعيـدا عـن حلبـة المصارعـة، حينهـا تحسـب نقطـة للمـرض وصفـر لمقاومـة المريضـة وصفـران لـدواء الطبيـب.

الهـدوء مسـتتب اليـوم، الأمـور تسـير بـتروٍّ وسـكينة حتـى الآن، كل مريضـة مسـتغرقة في التحديـق في الفـراغ أو إغـماض عينيهـا، وقطـرات المحلـول تنسـاب بهـدوء، المطـر الهـادئ في الخـارج والـدفء داخـل القاعـة أعطـى شـعورا بالاسـترخاء، لـولا الصـوت الـذي تصـدره واحـدة مـن الأمازونيـات بـين الحـين والآخـر وهـي تسـتفرغ الـلاشيء، تتبعـه بالبصـاق داخـل وعـاء بلاسـتيكي وُضِـع بجانـب سريرهـا.

قالت إحدانا:

- في أماكن أخرى يتلقون جرعات الكيماوي وهم جلوس على كراسي خشبية، تلك التي تقسم ظهر الصحيح، خفضت صوتها حتى بدا مثل حفيف أفعى ثم أضافت، أو ملقون في الممرات.

لم أكذبها فالمشافي الحكومية لا تختلف عن المسالخ، حتى حين تلد المرأة يضعونها رفقة أخرى في نفس السرير، وكأننا أدنى من أن نعامل كما يعامل الإنسان، في حين يتجه وجهاؤنا للعلاج في الخارج بعيدا عن المستشفيات التي شيدوها، وفارين من الأطباء الذين كونوهم.

لم تنخرط أي منا في مجاراة مصدر صاحبة الصوت، كلنا نعرف أن هناك من تريد فتح حديث مع من لا يريد أن يتفوه بكلمة.

عاد الهدوء لدقائق ثم سرعان ما كسر مرة أخرى لكن هذه المرة بسبب جلبة المشي والكلام الذي أحدثته «هالة» صاحبة عينيْ المها، رفقة مجموعة من الشباب سبق وقاموا بزيارتنا في السابق، أعضاء إحدى الجمعيات الخيرية، وزعوا علينا الكثير من الابتسامات، ساندويتشات شواء، علب عصير وقناني مياه معدنية، وابتهلوا لأجلنا الكثير من عبارات التشجيع، شكرت لهم كرمهم، وخاصة أن أحدا منهم لم يخرج جواله ويلتقط صورة توثق الحدث أو من أجل التباهي بها على صفحات التواصل الاجتماعي. لقد أصبحت آفة الصدقة أنها تجاوزت اليد اليسرى التي ما كان يجب أن تعرف ما قدمته اليد اليمنى، لقد أصبحت معراة بكل تفاخر أمام جميع الأعين والأيادي.

رفعت يدي في محاولة للفت انتباه «هالة»، تقدمت نحوي مبتسمة كعادتها، قبل أن تتفوه بكلمة بادرتها بالسؤال عن «سعيدة»، أضفت أنني اتصلت بها مرارا، وفي كل مرة أجد هاتفها مغلقا أو خارج مجال التغطية، أجابت أنها انتبهت هي الأخرى لغيابها لكنها لا تعلم سبب ذلك وأنها ستتصل بأهلها لتستفسر عن المانع الذي جعلها تفوت آخر جلسة من جلسات علاجها.

عسى أن يكون خيرا، قلت ثم رجوتها أن لا تنسى.

وعدتني أنها ستفعل وانصرفت رفقة أفراد الجمعية.

بين الحين والآخر تعلق إحدى المريضات كيس المحلول على رقبتها، تجاهد نفسها كي تحمل جسدها وتنهض وتغادر مكانها، تتأوه، تتنهد ثم تنجح في النزول من السرير والاتجاه نحو المرحاض بمشية متعبة يخيل للناظر إلى صاحبة هذه المشية أنها ستقع في أي لحظة.

الجلسة الخامسة كان يفترض بي أنني قد تعودت، تصالحت مع المضغة التي أصبحها جسدي بعد هزاله، مع شعري الغجري المفقود، مع حاجبي الكثين اللّذين أصبحا شبه فارغين، ومع بشرتي البيضاء الناعمة التي خذلتني هي الأخرى وأفسحت المجال للون الأصفر كي يخترقها.

أرفع رأسي في كل مرة، أبحث بنظراتي داخل القاعة علني أجد العجوز كي يجيبني على سؤال واحد فقط، سؤال أصبحت الإجابة عنه أمراً ملحًّا جدا: «هل آن الأوان؟»

لا أتلقى أي رد، ومع ذلك لا أيأس، أمد يدي كي أتحسس كتفي، أبحث عنها، لم تظهر بعد.

كانت الممرضة تقف عند النافذة، وتنتظر تقديم أي خدمة لمن تطلبها، ارتابت من تصرّفي فاقتربت مني بهدوء وسألتني: هل من مشكلة؟

أبحث عن أجنحتي.. (أجبت بوهن).

شرّعت عينيها في وجهي ثم لاذت بالصمت، انصرفت بهدوء كما أتت، سمعتها بعدئذ تهمس لزميلتها « إنه تأثير الدواء!».

أريد أجنحة تحلق بي لتنقذني من النزول إلى العالم السلفي.

أولم تخبرنا الأسطورة أن «لكل أبناء الرب أجنحة»؟

أنا ابنة الرب المنكسرة الروح، صاحبة القلب المعرَّى، اجبر كسري يا الله ودثر قلبي، ثم سكنت قليلا، وسألت: هلّا وهبتني جناحين؟

يبدأ الراوي قائلا[5]:

«في سالف الأيام كان لكل الأفارقة أجنحة، كانوا قادرين على التحليق كالطيور». ثم يحكي الراوي عن امرأة تعمل في المزرعة ولم تتعاف بعد من الوضع. يصرخ وليدها فتجلس لترضعه. يضربها سائق العبيد. تقوم للعمل ولكنها تسقط من شدة الوهن. يضربها من جديد، هكذا حتى تتطلع المرأة لشيخ افريقي من العبيد وتقول له بلغة لا يفهمها سادة المزرعة:

5 من حكايات التراث الشعبي الافريقي لأمريكي وردت في كتاب » لكل المقهورين أجنحة: الأستاذة تتكلم «لرضوى عاشور، دار الشروق، 2019، صفحة 11.

-هل حان الوقت يا والدي؟ فيجيب:

حـان الوقـت يـا ابنتـي. فـإذا بالمـرأة تطـير بصغيرهـا وقـد نبتـت لهـا أجنحـة..»

ربما لم يسمع سؤالي، أعيد والدوار يجعل كل ما بالقاعة يتداخل:

-هل حان الوقت يا والدي؟

لا جواب، فقط المزيد من الدوار والصمت.

اعتقنـي أيهـا المـرض لقـد أرهقتنـي أوجـاع السـياط التـي تجلـدني بهـا كل يـوم، أريـد حريتـي، أريـد جناحـين أطـير بهـما مـع صغـاري وزوجـي حيـث بيتـي الهـادئ قبـل أن يصبـح مـا هـو عليـه مـن فـوضى، وقبـل أن يصـيروا إليـه جميعهـم إلى مـا هـم عليـه اليـوم مـن تشـتت.

16

نكبر لتكبر معنا الهموم وتتعاظم، تسوء الرؤى أو تنعدم عند أكثر المواقف التي نكون عندها بأمس الحاجة إلى الوضوح، أسئلتنا السَّاذجة تحمل في جوفها نصلا تسدده نحونا في كل مرة هدفها إصابتنا في مقتل.

الكثير من النوافذ تظهر على سطح مكتب عقلي، ذاكرتي تسلط ضوءها المؤذي على أدق الجزيئات، كنت في كل مرة أضغط على زر «موافق» لأنتهي، غير أن النوافذ جن جنونها، تزايد عددها وتكاثرت بشكل فظيع ثم خلُصت إلى أن تظهر دفعة واحدة وبطريقة هستيرية جعلت رأسي مستودع خردة لا يحتوي قطعة واحدة صالحة.

مستلقية على أريكة الصالون أحاول اقتناص فكرة مرتبة تشد أزري وتكون إلى جانبي وجانب عائلتي المشتتة.

لم يتبق لي سوى جلسة واحدة من جلسات الكيماوي، معركة مصيرية، أحشائي تودع تدريجيا آثار الجلسة الخامسة، الدوار ينسحب تدريجيا، مقاتل يفرغ كامل ذخيرته ويتراجع إلى أعلى الجبل، يسعى إلى التزود ليكون هدفه في المرة القادمة جعلي ضحية أكثر إنهاكا، لقمة سائغة يسهل الانقضاض عليها.

رن هاتفي، ألقيت نظرة على الشاشة لأتحقق من اسم المتصل، «لقد أوفت بوعدها» قلت في نفسي، كانت «هالة» صديقة الجميع، سألتني عن حالي أجبتها أني بخير واستطردت أنني كنت في انتظار اتصالها منذ يومين.

صمتت للحظات ثم قالت بصوت منكسر: «سعيدة سارت إلى لله»

لم أستوعب العبارة أو أنني لم أرد تصديقها، فسألت بغباء:

-كيف يعني؟

ماتت مساء اليوم. رحمها الله. أحضروها هذا الصباح إلى قسم الاستعجالات في وضع حرج، لم تستطع المقاومة فسلمت روحها إلى بارئها.

الدفن غدا، سجلي لديك العنوان إن كانت لديك رغبة في حضور مراسيم العزاء. أضافت دون أن أطلب منها كلمة إضافية.

إذن الموت والحياة يعقدان صفقة ضدها، هذا هو حال الدنيا، وهذه هي عجلتها

فالموت في بحث دائم عن الحياة، والحياة تسير بهدوء ورتابة نحو الموت.

ونحن! نحن لا نعدو عن كوننا دمى بين أيدي الحياة والموت، تتسلى بها الأولى وحين تشعر بالملل أو تفيض عن حاجتها تلقي بها

للثاني، يستقبلها هذا الأخير بشراهة أو يختار العبث معها وملاطفتها وفي أغلب الأوقات اللعب على أعصابها إلى حين.

لم يطل مداعبتها، لقد أوجعته خيبتها فسارع لاحتضانها.

امتلأت عن آخري بالخوف والدموع، ثبتُّ عيني على نقوش السجاد، بدت أكثر تداخلا وارتباكا، أكثر فوضى من داخلي، حاولت أن أبقى متماسكة ولا ألفت انتباه أطفالي !

لعبُ «محمد» المتناثرة ساعدت الفوضى لكي تبدو أكثر بذخا، ينام هو على الأريكة بعد أن أنهكه تعب اللعب، «آدم» متسمر أمام التلفاز يتابع الرسوم المتحركة، أصوات الشخصيات الكرتونية تستفزني، «ماريا» خلقت لنفسها عالما مع لعبها، تتحدث إليها، تأمرها ثم تعود لتنهيها، تعرِّيها ثم تعيد إلباسها القطعة تلو الأخرى، تصرخ فيها وتؤنبها ثم ما تلبث أن تحتضنها وهي تتوسلها الصفح والعذر.

من عاداتها التي لم تعد تزعجني مخاطبة جميع الأشياء، لعبها، وسادتها، طاس الحليب، كرسي المطبخ، أقلامها الملونة، قطع الحلوى التي تحظى بها، تتحدث إليها كصديق طيب لا يمل من خلق الأحاديث مع الآخرين، لم يكن يصلني سوى صوتها المتداخل، كنت أسترق السمع بين الحين والآخر وهي تقول بود: «سننتهي قريبا، لا تخافي يا حلوتي».

خمنت أنها تخاطب دميتها التي حصلت عليها في عيد ميلادها الرابع ومنذ ذلك الحين وهي صديقتها وأختها التي لم يحالفني الحظ -ولا الوقت- في إنجابها لها.

أدارت رأسها الصغير نحوي، وأمرتني أن أغمض عيني خشيت أن تفيض دموعي لكنني تماسكت، صورة «سعيدة» تحتل مخيلتي، خبر موتها يستحوذ على حواسي، لا يزال عصيا على التصديق.

خبأت يديها الصغيرتين خلف ظهرها، ضحكت ضحكتها الطفولية التي تدثرني وأعادت أمرها لي: ماما، قلت أغمضي جيدا، لا تكوني غشاشة.

قلت بصوت واهن وجاهدت أن لا تخرج كلماتي مصابة بالدوار: أغمضت جيدا، ماذا تخبئين لي يا حبيبتي؟

افتحي عينيك!

فتحتهما على انعكاس شكلي، الوجه الشاحب، العينين المحاطتين بالهالات السود، والشعر المختفي الذي غدر بالرأس وتركه أصلعا.

دميتها، صديقتها، أختها، ابنتها، أنيسة وحدتها أحالتها إلى مسخ، إلى أنا.

قالت بصوت ناعم: لقد قصصت شعرها وزينت عينيها بالأسود، ولونت وجهها بالأصفر.

صمتت لحظة تأملتني، مسحت براحة يدها الصغيرة على خدي وقالت:

-تماما مثلك ماما، هل أعجبتك؟

احتضنت الاثنتين، ابنتي وابنة ابنتي ولسبب ما لم أذرف دمعة واحدة. كلنا دمى في النهاية.

أغلب المواقف والأحداث أصبحت مريبة ومستفزة بالنسبة لي، الدوامات التي أزج بنفسي داخلها بسبب أفكاري ليس لها منفذ، وفاة «سعيدة» أدخلني في جو من الحزن والكآبة طال أمده.

لم أكن أتوقع أن تكون هي بالذات أول مريضة أودعها، شعلة الأمل، صاحبة الضحكة المبهجة تنصرف بهدوء، تنزل إلى العالم السفلي منكسرة، يكفنها الخذلان، وتترك لنا في العالم العلوي المزيد من الخيبة.

القطن الأبيض المحشو داخل أنفها لم يبرح مخيلتي، اللون الأبيض الذي لُفَّت به يبعث بالقشعريرة إلى كامل جسدي كلما تذكرته، وقع نظري على الإزار الذي أفرشه على السرير فازداد ارتباكي، رغم أن الغرفة مظلمة إلا أن بياضه طغى على الظلام أو هكذا خيل إلي. لقد وصلت إلى الحد الذي لم تعد لي فيه القدرة على تحمل رؤية اللون الأبيض، الأمر فاق حدود الاستفزاز، نغزت زوجي المستغرق في نومه، لم ينتبه. حركته ببعض الخشونة من كتفه طالبة منه الاستيقاظ.

لماذا؟ سأل بضيق.

أريد تغيير الإزار. أجبت بحزم.

حين وصلت لعزاء «سعيدة» قبل يومين كان قد تم تغسيلها وتكفينها ودس القطن داخل أنفها، ازرقَّ وجهها الذي لم أعرفه من

قبل سوى مشرقا بضحكتها رغم اصفراره، مالت شفتها من الجهة اليمنى نحو الأعلى، وكل من رأى جثتها ممددة على اللوح الخشبي قبل أن يُقفَل التابوت أجزم على أنها كانت تبتسم للملائكة، وحدي كنت على يقين تام أنها تبتسم للعجوز الذي أجابها بعد إلحاحها في السؤال: «حان الوقت يا ابنتي»، رغم أنها مغطاة بالأبيض من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها إلا أنني تمكنت من رؤية جناحيها.

لم يكن هذا هو الأبيض الذي حَلمت بارتدائه، ولا الذي انتظرته بشغف، الأبيض لون واحد يترجم أكبر متناقضين، الفرح والحزن، الحياة والموت.

لم يقتلها المرض، لقد قتلتها الخيبة والخذلان.

تزحزح من مكانه بطريقة آلية دون أن يتفوه بنصف كلمة تذمر، لقد فهمني أو أنه أعفى نفسه من الدخول في سجال لا ولن ينتهيَ، وقف شبه نائم حاملا وسادته بين ذراعيه منتظرا إياي ريثما قمت بتغيير الغطاء الأبيض المستفزّ بآخر زهريّ ضاعت منه أغلب ألوانه من كثرة غسله، عاد مباشرة إلى النوم فور انتهائي من المهمة، وكأنه لم يستيقظ من الأساس، أما أنا فلم أستطع الاستلقاء قبل أن ألقيَ بالبياض داخل كيس أسود لأرميه في القمامة.

الأبيض لون التقوى، لون العامرة قلوبهم بالإيمان والورع، أم الألوان السبعة واللون الذي يذكرني بمصيري، الكفن يتحرش بالمخيلة، أحاول طرد الفكرة من رأسي، أترجاها كي تخرج وتوصد الباب خلفها، أتوسل بعض الذكريات الجميلة أن تزيحها لكن دون جدوى. أغمض

عينـي، أرى نفـسي ممـددة عـلى طاولـة تغسـيل المـوتى، لم يسـبق لي أن رأيـت ميتـا يُغسـل أمامـي، لكننـي خـبرت المـوت وأنـا ابنـة اليـوم الواحـد.

كل مـا أعرفـه أن جـدتي بقامتهـا الضحلـة كانـت تتعامـل مـع الأمـر بـكل سلاسـة وهـدوء، تلبـس ثوبهـا الأبيـض، تتوضـأ وتذهـب كأنهـا في مهمـة رسـمية، تنهـي مهمتهـا وتعـود منكـسرة طـوال اليـوم ثـم تحـضر عشـاء لكلينـا وتنطلـق في إطـلاق الكثـير مـن النكـت أغلبهـا غـير مضحـك، فهمـت فيـما بعـد أنهـا تـراوغ المـوت.

أخبرتنـي مـرارا أنهـا تحـذّر عـادة عائـلات الميـت مـن دخـول الغربـاء حيـث تكـون مراسـيم التغسـيل خشـية سرقـة أحـد أجـزاء الميـت، واسـتخدامها في السـحر لجلـب الحبيـب عـادة أو التفريـق بـين المحبـين، الأمـر يبـدو سـاذجا للغايـة، التـبرع بالأعضـاء يبـدو حـلا إنسـانيا أو هكـذا تهيـأ لي، لكـن مـا الـذي يدريـني أنهـم لـن يتاجـروا بهـا؟ لقـد باعـوا كل شيء، الوطـن ومـا عليـه، لـن تعـز عليهـم أعضـاء كائـن بائـس مثـلي.

أحـاول النـوم، أسـتجديه، أتكـور في جسـدي، أفتـح عينـي، يبـدو كل شيء حقيقـي أمامـي، امـرأة تجـردني مـن ثيـابي، أخـرى تتفحـص أظافـر يـدي وقدمـي إن كانـت تسـتحق القـص، مـن السـنة أن يتـم تظفـير المـرأة، هنـا سـتكون المهمـة سـهلة ليـس لـدي مـا يظفرونـه، رأس بصلـة، تُبسـملُ وتحوقـل، تسـكب المـاء، قطعـة قطـن داخـل الفـم، قطعتـين تسـد بهـما فتحتـي الأنـف، تختلـس بـين الحـين والآخـر النظـر إلى نقـصي، حتـى وأنـا ميتـة لم يرحمـوني.

أضغط على يدها، أظافري التي كانت تحاول تقليمها قبل قليل تبرز بقوة أغرسها داخل جلدها، ولا أتوقف حتى أجعلها تصرخ وتتأوه من الألم فأزداد انتشاءً برؤية الدم تحت أظافري، أدس بأصابع اليد الأخرى داخل عينيها بالتناوب أريد أن أفقأهما، أنتشي أكثر وأنا أرى في هلعها فقئي لكل العيون التي رمقت نقصي بتعجب، بتشف، بخوف، باستفسار.

شيء ما يجعل جسدي المتخشب يرتج، يحركني بعنف، يأتيني صوت زوجي من عالم الأحياء:

استيقظي حبيبتي. كابوس مرة أخرى؟

أتفحص الغرفة، أحملق فيه بكل ورع كي أتأكد أنه كما قال، مجرد كابوس.

هل نعيش حياة داخل حلم، أم حلما داخل حياة؟ سؤال بلا إجابة، معلق على مشجب المجهول رفقة جميع الأسئلة التي سبق وقمنا بطرحها مع الكثير من علامات الاستفهام، رغم ظاهر سذاجة بعضها إلا أن أحدا لم يستطع فك طلاسم السذاجة.

أين أنت الآن أيها الموت؟ أتخيلك تتسلل آخر الليل إلى بيت عائلة بسيطة، بعدما يستكين أفرادها.. إن البرد غير قادر على سرقة دفئهم، تسلبهم عمودهم الفقري وتنصرف، لتتركهم جسدا عاجزا عن تقديم أو تأخير نصف خطوة، بلا جدار يستندون إليه، محرومين من كلمة «بابا» المبلِّلة لجفاف الحرمان.

تجلس بالقرب من امرأة قوية تفكر مليا كيف ستكسر قوتها فتقرر خطف ابنها، تتواطأ بخسّة مع أمواج البحر وهي تقلب قاربا أثقلته الهموم بدل الأشخاص، تسرق منهم الحياة قبل أن يعيشوها، تضع ساقا فوق ساق بعد كل مهمة، تدخن سيجارة تنفث دخانها عاليا وأنت جالس تشاهد حجم الخراب الذي خلفته، تتذكر أنك أبكيت، قهرت، شردت، أرحت، صدمت وأنك تواجدت في كل مكان، وفي كل زمان، في المستشفيات، على الطريق السيار، في البحار، على قارعة الطريق، داخل المنازل، في الحروب، في الأفراح، في الكوارث الطبيعية، أ لم تتعب؟ أ لم تأتك الرغبة يوما في أن تستريح ريثما يستعيد العالم أنفاسه؟

ألهذا الحد شهيتك لقبض الأرواح شرهة؟ ليس هناك أدنى شك في هذا.

لقد أُنهِكَت قواي، التفكير لا يجلب لي سوى المزيد من التفكير، والليل لا يأتي سوى بأحلك ما لديه، أتخبط في مكاني قبل أن أحمل نفسي وأتسلل إلى غرفة «آدم» و»ماريا»، أندس تحت البطانية بجانب ابني، أراقب تفاصيل وجهه، كأنني أنجبت نفسي، كررت شكلي في صيغة المذكر، لن أراه يشب أمامي ليزف لي خبر دخوله الجامعة، لن أعيش معه لذة قراءة كتاب ومناقشته سويا، لن أحيا لأكحِّل عيني بأوسم رجل في العالم وهو يؤدي قسم «أبقراط»، أختنق قبل أن أحول نظري إلى أخته، تخنقني القائمة الطويلة للأشياء التي لم أفعلها والمواقف التي لن أعيشها.

لم يحذو أحد بعد حذو «جلجامش» في رحلة البحث عن سر الخلود والحياة الأبدية، حتى أنا لم يخطر لي أن أفكر في هذا، كنت أعرف أنني سأموت البديهية التي يعرفها الجميع، لكن ليس هذا هو الوقت المناسب، وقت الموت الوقت الذي لم يناسب أحدا، لماذا لا نفكر في أنه علينا أن نتعلم كيف نحيا، كيف نعيش الحياة بدلا من تجنب الموت أو بتعبير أدق ريثما يجيء الموت.

أحس بقشعريرة تجتاح جسدي، تصطك أسناني، أردد الشهادتين، أستغفر الله، أتلو وأعيد تلاوة قوله تعالى:

«أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا» الآية 78 من سورة النساء

أخفت السمع، يرد إلى أذنيَ صوت خطواته الواثقة تتقدم، يتوقف لثوانٍ، يضع يده على مقبض الباب، تحبس أنفاسي، يديره، أراه يدنو مني، يقترب بحذر من مسخ.

«ُطلب الموت توهب لك الحياة».. تقفز العبارة إلى ذهني، أرفع يدي إلى السماء، أشير بعيني إلى طفليّ اللّذين أراهما تحت ضوء خافت وكأنني أطلب من الله أن يسمع ندائي لأجلهما فقط، أعيد وأرفع عيني إلى السماء، أتضرع بصوت مختنق: « يا رب أرح هذا المسخ الذي صرته، أذكره أن الضر قد مسني وبأني لست «أيوب»، ليست لدي الطاقة التي استطاع أن يقول بها أحمدك رب الأرباب»

تنسكب الدموع من عيني، لم أتوضأ، لم أُولِّ وجهي شطر القبلة، الله لن يهتم لكل هذه التفاصيل الصغيرة، لديه تفصيل أكبر، تفصيل ضخم، كيف يعيد لهذا المسخ الذي أصبحته أشياء بسيطة، تافهة: الشعر، الأظافر، ولون بشرتي الذي فر منها بغير رجعة.

أمسح وجهي وأعيد تحسس رأسي وأنا أدس راحتيْ يدي تحت الغطاء الذي أخنقه به، رأسي الأملس الذي لم أتجرأ على تعريته حتى ليلا وهم نيام، أعيد تثبيت الغطاء عليه. يقال إن الشعر يستمر في النمو بعد وفاة الإنسان لمدة ثلاثة أسابيع، لذلك يتم وضع مقص مع الجثة لدى بعض الشعوب، ماذا لو كانت هذه الأسطورة حقيقة قطعية؟ حتى لو وضعوا عن يميني مقصا، وعن يساري، وفوقي، وتحتي، وعند قدمي آخر عند رأسي، فإني لن أفكر أبدا في مد يدي وسحب أيٍّ منها، لن أتهور وأقص شعري.

أستغفر الله وأنهض من خلف صغيري وأنسحب من الغرفة على رؤوس أصابعي.

17

تكاليـف العـلاج تعرينـي يومـا بعـد الآخـر، تثقـب جيـوب زوجـي الموظـف الحكومـي البسـيط، قـرأت أن هنـاك علاجـات فعالـة يتـم انتهاجها في «الهنـد»، وأخـرى متطـورة وقطعيـة في «اليابـان»، لكـن لا شيء يقفـز إلى ذهنـي سـوى المثـل القائـل « العـين بصـيرة واليـد قصـيرة» قصـيرة جـدا، لقـد باتـت أجـرة الحافلـة تؤرقنـي فكيـف أحلـم بتذكـرة لركـوب طائـرة؟

زميلتـي في العمـل أخبرتنـي في محادثـة بيننـا أنهـا سـتتحدث إلى الحكيـم لأجـلي، اتضـح فيـما بعـد أن حكيمهـا هـو بائـع أعشـاب كان زميـلا لنـا في المرحلـة الابتدائيـة التـي لم يتجاوزهـا إلى أي مرحلـة أخـرى، عمـل في التجـارة بمختلـف أنواعهـا، ثـم أطلـق لحيتـه ارتـدى قميصـاً قصـيراً وأصبـح حكيـما يديـر محـلا للأعشـاب الطبيعيـة.

لازلـت أقـاوم رغـم الإغـراءات اليوميـة، ورغـم الكـم الهائـل مـن الوعـود القطعيـة أننـي سأشـفى، كانـت ثقتـي في طبيبـي نابعـة مـن ثقـة المؤمـن بدينـه، لم أقـم بدلـك مـكان الجـرح بالفلفـل الأخـضر الحـار حـين أخـبروني أنـه فعـال في إذابـة الـورم، ولا شـغلت نفـسي بالبحـث عـن نبتـة «المريميـة» لأخلطهـا مـع الطحـين والمـاء كي أشـكل منهـا عجينـة وألفهـا عـلى عضـوي المصـاب، بـدل حضـور جلسـات الكيـماوي المرهقـة، حتـى

أنني سكبت شوربة لحم الكلاب وكسرت صحن «كريمة»، ولست آسفة على ذلك أبداً.

آخر جلسة من جلسات الكيماوي، الجلسة السادسة والجولة الأخيرة، وأنا مستلقية وباسطة يدي مثلما جرت العادة.. هذه المرة انشغلت بتوديع القاعة وما عليها بنظراتي، رائحة المرض والأدوية، النوافذ، الستائر، القضبان المعدنية، أكياس المحاليل، الممرضات، الطبيب، كلها ستصبح ألبوما ضخما من الذكريات.

أفتقد «سعيدة» جدا، شعرت أني بحاجة ماسة لأن أحتضنها، ليتني فعلت قبل أن يسرقها الموت، لقد خطفها في غفلة منا جميعاً.

صاحبة الأسئلة الساذجة التي رافقتني طيلة خمس جلسات لم تأت اليوم، تمنيت توديع ضحكتها في هذا المكان بالضبط، أجزم أننا سنلتقي مرة أخرى لكن ليس داخل هذه القاعة، أو ربما هذا ما أتمناه.

سألت «هالة» عنها قالت إنها لن تأتيَ لأنها مريضة، أحسست بوخز في قلبي.

مريضة؟ سألت خائفة.

لا تجزعي، قالت مطمئنة، إنها تعاني من الزكام فحسب، المناعة هشة، ضعيفة في مثل وضعكم وعلى الأغلب لم تنتبه لنفسها كفاية.

سمات «الأمازونيات» في تغير مستمر، وجوه تختفي وأخرى تظهر، خوف مستعر وأمل يحيا.

أعـرف أن النهايـة لا تعنـي النهايـة كمصطلـح وأنـه سـيغلق السـتار عـلى جميـع الآلام ويبـدأ فجـر جديـد، لا قطعـا، فالحيـاة في جعبتهـا الكثـير، فهـي ماهـرة في مفاجأتنـا بـين الفينـة والأخـرى.

سأظل أسأل السؤال الشهير: ماذا بعد؟

تبـدأ كريـة الثلـج بالتدحـرج مـن أعـلى الجبـل فتكـون في بدايـة الأمـر مجـرد قطعـة صغـيرة بيضـاء جذابـة، تتعاظـم وتكـبر في طريقهـا حتـى تصبـح ضخمـة ومرعبـة عنـد نهايـة المطـاف.

مشـكلتي بـدأت بـِ:»لا تقلقـي، مجـرد فحـص بسـيط» وأن كل شيء بعـده سـيكون عـلى مـا يـرام، لكـن ذلـك الفحـص البسـيط تعاظـم وتشـعب، جعلنـي أطـرق أبوابـا مبهمـة، أسـلك مسـالك لم تكـن يومـا في الحسـبان، فحوصـات تفـضي إلى المزيـد مـن الفحوصـات، وحـيرة تسـحبني لطـرق أبـواب متفرقـة مـن التِّيـه.

التشـخيص، تشـخيص مـرضي تحديـدا وبدايـة معركتـي معـه، أشـياء كهـذه لا تعـود الحيـاة بعدهـا إلى سـابق عهدهـا أبـدا، تخلّد نفسـها لتصبح نقطـة فاصلـة، علامـة فارقـة، أشـياء كهـذه هـي ذلـك الحـدث الاسـتثنائي الـذي تكـون الأحـداث قبلـه قلبـت موازيـن مـا بعـده.

قبـل التأريـخ وبعـده، قبـل الحـرب وبعدهـا، قبـل الثـورة الصناعيـة وبعدهـا، قبـل اكتشـاف الحـبر وبعـد، قبـل الفقـد وبعـده، قبـل التشـخيص وبعـده.

مـن بـين كل مـا مـررت بـه لم يكـسر ظهـري سـوى أطفـالي، لم أحـس أننـي أسـتحق الحيـاة، أو أسـتحق فرصـة ثانيـة مـن اللـه سـوى لأجلهـم.

أحمـد اللـه أننـي لم أولـد في القـرن السـابع عـشر أو الثامـن عـشر حيـث كان يعتـبر السرطـان مرضـا معديـا مثلـه مثـل الطاعـون، وخوفـا مـن العـدوى تـم دفـن العديـد مـن الأشـخاص المصابـين، وسرّعـوا عمليـة حثـو الـتراب عليهـم بغيـة التخلـص مـن الوبـاء وحامليـه في أسرع وقـت دون التحقـق في الكثـير مـن المـرات مـن أن المصـاب فـارق الحيـاة فعـلا.

المسـاكين، أتذكـر المعلومـة فأشـكر اللـه أن مـنَّ علينـا بخيـار خـوض المعركـة، وأوحـى لنـا باسـتعمال السـلاح الـذي يـراه مناسـبا للمصارعـة داخـل الحلبـة، المهـم أن ينتـصر في النهايـة.

أصبـح تعامـلي اليومـي مـع مفاهيـم جديـدة، مصطلحـات لم أفكـر مـن قبـل يومـا في محاولـة معرفـة ماهيتهـا، حتـى سـماعها لم يكـن يثـير في أيّ فضـول لمعرفـة معنـاه.

أتذكـر صاحبـة الأسـئلة السـاذجة حـين قصـت عـلي قصتهـا مـع تحاليلهـا، قالـت: أخـذ زوجـي التحاليـل إلى المسـتوصف بـدلا عنـي، فأخبرته الطبيبـة هنـاك أنـه يتوجـب عـلى الزوجـة القيـام باختبـار الخزعـة، فأتاهـا مطمئنـا قائـلا: لا تخـافي سـنقوم بالفزعـة!

مـع وصـولي هـذه المرحلـة بالـذات أصبحـت أمتلـك قاموسـا ثريـا، غنيـا بعبـارات وجمـل أسـتطيع أن أجعلهـا منجـدا وأضيفـه إلى رف مكتبـة العمـل تسـتفيد منـه كل امـرأة، كل طفـل، كل شـيخ وحتـى كل زوج مهتـم، ربمـا سـأقوم بنسـخ المئـات مـن النسـخ وأوزع مـع كل كتـاب

يطلب للإعارة نسخة دون أن أطالبهم بإرجاعها، سيكون مجانيا، لكن لا أحد يقرأ. تذكرت هذه الحقيقة المؤلمة. شعوب تتكاسل عن قراءة تاريخ نهاية صلاحية المواد الغذائية هل ستكلف نفسها عناء قراءة قاموس ممل.

الكيماوي أفلتَ يدي أخيرا، وسيسلمني قريبا لـِ: «راديو ثيرابي»، قفل موليا ظهره رافعا راية ناصعة البياض. لم يترك لي سوى ذكرياته العصية على النسيان، ذكريات عالقة بكل جزء من جسدي، لقد أعاد لي الثقة بهذا الأخير، كيف لكتلة من لحم ودم تدعى الجسد القدرة على المصارعة والتغلب على وحش ضاري يدعى الكيماوي؟

الجسد، إنه أعظم شيء خُلِق على الإطلاق! رغم أنني أصبحت هيكلا، كوخا مهجورا يخيل لناظره أنه مأوى للأشباح، ينفّر كل من يود الاقتراب منه، حتى ساكنه، لا بل ساكنه كان أول من فر منه باحثا عن سكن مريح، لم أعد أرى منه سوى جثته التي تستلقي بجانبي على السرير، ولم أعد أسمع منه سوى: «اصبري، لم يبق سوى القليل» هذا القليل الذي خلته لن ينتهيَ أبدا.

الإجراءات الروتينية لم تعد هاجسا بالنسبة لي، معلوماتي لحد الآن لا بأس بها، بل وتستطيع أن تسير بي حيث أنا ذاهبة دون هلع أو خوف، دون توجس من شيء اسمه المجهول، أيا كان هذا المجهول فأنا له.

لقد مضت أشهر، حين أستغرق في التفكير فيها أحس أنني كنت داخل متاهة وسأهتدي إلى طريق الخروج قريبا، عجلة الأيام التي

كنت أظنها متوقفة عندي، لم تكن كذلك، هي فقط غيرت الطريق، سارت بي في طريق جبلي وعر وها قد اقتربنا من الوصول إلى نهايته.

حبة البصل التي كانها رأسي بدأت تخرج دبابيس كثيرة، رؤوس إبر صغيرة حادة، إنه شعري يقرر العودة أخيرا.

أطال الغياب لكنه عائد، كسرني لكنه سيعود ليجبرني، فرحتي بعودته فاقت فرحة أم أضناها الشوق والانتظار وها هي تختبئ أخيرا بين ذراعي ابنها. لا بل تربو عن غبطة عاقر أنتش بطنها البور بعد أعوام طوال من القحط والانتظار، من الترقب والاستماع اليومي لعبارات الشفقة والتشفي، بعد عدد ضخم من متى نرى طفلك؟ بعد ظهور الخط الثاني أخيرا على اختبار حمل جربت مثيله آلاف المرات من قبل ولم تر النتيجة سوى خطا واحدا بائسا خجلا من كسرها.

أردت أن أحتضنه دون أن أفلته، أن أغرقه بالقبلات، أن أسقيه بدموعي كي يعرف حجم شوقي إليه علّه يرتوي وينمو بجنون يفوق جنون فرحتي.

ماذا يمكنني القول عن ذلك غير المرغوب فيه؟ الشعر الذي نصرفه في البالوعات، الذي ننفق أموالا طائلة على آلات مثل «براون» كي لا نراه أو نؤخر ظهوره على الأغلب، الذي نتألم بالشمع حتى يخفت وكأننا «مازوشيات» نتلذذ بالألم! شعري يعود، أبكي لعودته، أتلمس بأطراف أصابعي الإبر الحادة وهي تبرز من مناطق متفرقة، بعشوائية جذابة، أتحسسه وهو ينمو في أماكن مختلفة من جسدي،

أظافري تستعيد شكلها وعافيتها، حاجبي، بشرتي، تبتسم لي من جديد، أشياء بسيطة جدا لم أنتبه يوما أنها أعظم ما يملك المرء..

الكيماوي ينسحب من جسدي.

المعركة حسمت على الأغلب ولم يبق سوى انتظار صفارة الحكم وهي تعلن من المنتصر ومن عليه رفع الراية البيضاء والتواري خلفها للأبد.

لا، مهلا، كل شيء متوقف، حابس أنفاسه، ينتظر، يترقب نتيجتي، كل الأشياء متأهبة لأن تصرخ، صرخة فرح وتصيح: لقد انتصرت يا «ياسمينة»، لقد هزمت إمبراطور الأمراض، لقد استعدتِ جسدك سالما معافى، جسدا أستبيح/ اغتصب/ وعُرِبد فوق كل شبر منه بكل صفاقة، ولقد حرّر أخيرا بالكامل، الرايات البيضاء يرفعها المرض على كل عضو، وراية ضخمة على الثدي، كتب عليها: لقد فُزتِ، لقد تمكنت من قهري ودحري. هنيئا لك هذا الانتصار.

كدت أبتسم لهذه النهاية لكنني تذكرت أنه يمكن أن يحدث العكس تماما، أن تنقلب الموازين، أن لا ينتصر الخير دائما مثلما أخبرونا في قصص الأطفال.

في الحياة عادة تكون نهاية قصة درامية هي بداية لقصة أكثر دراما ومأساوية، بدا لي أن الزمن متوقف في الجهة الأخرى، في صف المرض، وكل الأشياء في الجهة الأخرى تنتظر بشوق كي تصفق للمرض، كي تحتضنه بشدة وهي تهنئه، «لقد خدعتها، تستحق بجدارة لقب

ثعلب، أنت الأقوى لأنك لم تسمح لمثلها أن يمحوَ وجودك من خارطة جسدها»

حين تعريت أول مرة امتثالا لأمر الطبيبة التي قالت: « انزعي ثيابك، فحص بسيط وسيكون كل شيء على ما يرام» كنت على يقين أن تلك الجملة ستكون مدخلا لحدث عظيم، لأمر مختلف، فريد من نوعه، أمر يصعب الرجوع إلى ما قبله حتى لو ارتديت ثيابي ألف مرة في اليوم، تلك الجملة كانت كافية لتعريني ليس فقط من جزئي العلوي، بل مني أنا تحديدا، لقد تجردت من أنا ما قبل المرض ولبست أنا جديدة أثناء وبعد المرض. ذلك اللعين الذي تساءلت يوما عما يمكنه أن يمنحني إياه في النهاية قد أعاد عجني وبلورتي، لم يمنحني حياة جديدة، بل منحني أنا جديدة.

18

«إن جراحنا هي التشققات التي يدخل منها النور، لذا أنا ممتن لكل جراحاتي.»

_ -جلال الدين الرومي-

يتضح لي يوما بعد الآخر أن جميع المعارك والحروب الطاحنة التي خضتها، كما التي أنا بصدد خوضها هي من أجل عودتي إلى روتيني العادي، إلى الحياة البسيطة الرتيبة التي لم أعطها يوما أدنى أهمية. بقائي في المنزل يزيد من توتري ودخولي دوامة الحيرة، الخوف يعود ليقرص الطمأنينة داخلي كلما أحس أنها غلبته.

اتصلت بسماح، تحدثنا قليلا قبل أن تعتذر لشدة انشغالها، تمنيت لها يوما طيبا وأقفلت الخط، ماذا سأفعل في ظل هذا الفراغ؟

هل سأستمر في ندب حظي إلى آخر يوم من حياتي؟ النتائج النهائية ستظهر لا محالة، تحلي ببعض الصبر يا «ياسمينة»- أقول لنفسي-

منذ أيام كنت كلما لمحت شجرة أو مررت أمامها وددت لو اقتربت منها خصيصا لكي أسألها: أَ أنتِ من تخبئين تابوتي؟

أقـف عنـد الشرفـة هـذا اليـوم، أغتسـل بأشـعة الشـمس، تقابلنـي العديـد مـن الأشـجار الخـضراء التـي لا تخبـئ داخـل جوفهـا سـوى الحيـاة، أو هكـذا بـدا لي، الجـو ربيعـي دافـئ، السـماء صفحـة زرقـاء تلهـو عليهـا بعـض الغيـمات الفتيـة، ويخترقهـا خـط أبيـض خلفتـه طائـرة خلفهـا.

ألقيـت نظـرة عـلى الشـارع الـذي يكـون شـبه خـالٍ في مثـل هـذا الوقـت، إلا مـن بعـض المـارة.

السـاعة تشـير إلى التاسـعة صباحـاً، الكسـالى في أسرتهـم يقـبرون الجـمال بالسـبات داخـل غرفهـم المظلمـة، التلاميـذ داخـل حجـرات الـدرس، الموظفـون خلـف مكاتبهـم، ربـات البيـوت ينجـزن العمـل تلـو الآخـر، وآخـرون كثـيرون منصرفـون إلى أشـغالهم، في مثـل هـذا الوقـت كنـت سـأكون خلـف مكتبـي، أقـوم بعمـلي الروتينـي وأختلـس السـمع للموظفـات، أجـادل أحيانـا في وقـت الخـروج، وأقـرأ المزيـد مـن الروايـات والسـير الذاتيـة.

أفكـر جديـا في احتماليـة عـودتي للعمـل، العمـل الـذي قـبر شـغفي، وحتـى لـو كنـت مضطـرة للعـودة كيـف سـيكون وضعـي بعـد كل هـذا الانقطـاع، بعـد أن ودعـت أنـا التـي كنتهـا وتأقلمـت مـع أنـا التـي صرتهـا.

أسـحب نفسـاً عميقـاً، أنحنـي لأعيـد ترتيـب نباتـاتي، أبتسـم لـكل أصيـص عـلى حـده، وأبتسـم بعمـق لـكل نبتـة أعـادت بلـورة نفسـها وودعـت اصفرارهـا وذبولهـا.

« سبحان الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي»..أتمتم.

أنظف الأصيص الذي غافلته النباتات الضارة وظهرت بكل صفاقة وبجاحة، رائحة النعناع تفوح بقوة بعد أن سقيته، تفوح معها رائحة جدتي، كلماتها تملأ روحي، تعبئ المكان.

جدتي كم اشتقت إليها!

دون مزيد من التفكير، ارتديت معطفي وانتعلت حذائي، جهزت «محمدا» بعدما اتصلت بالمربية التي قالت أنها اشتاقت إليه كثيرا وأن قضاء اليوم معه سيسعدها.

أسير وحيدة في الشارع، كلما انعرجت ورفعت رأسي قليلا قرأت اسما لشهيد يقال أنه ضحى بحياته لأجل «الجزائر»، لا أدري أية جزائر أرادها أن تكون، ولا كيف رسم شوارعها وتخيل شعبها، بماذا كان يفكر وهو يهدي حياته ...؟

الموت لا يرفض أحدا، شهيته مفتوحة دائما..

مؤخرا دخلت لافتات جديدة حيز الرؤية، شاي ومكسرات سورية، شوارما حلبية، مطعم اسطمبول، اللاجئة السورية التي رأيتها منذ أشهر تنادي بأعلى صوتها « ناطف قلبي ع بطيخة» وبطنها متكور أمام يديها يبدو أنها وضعت حملها أخيرا، وضعت حياة جديدة.

اللاجئ المالي لا زال صوته يصدح «صدكة» «صدكة»

«ناطف قلبي ع بطيخة» .. صدكة، صدكة، حفلة الأسئلة العالقة بدأت لتوها داخل رأسي، أية قوة هذه التي تجعل المرء يفر من وطنه، من ارتباطه بوسادته، بغرفة الجلوس، بعمله الروتيني،

بضحكات أطفال حيه، بغبار النافذة المطلة على الحي، بصورة الجد تتوسط جدار غرفة الجلوس، بالمدفئة ليالي الشتاء، بالنباتات الخضراء التي يرويها كل صباح، بروائح الطبخ المنبعثة من شرفات الجيران الضيقة، كيف يركل كل هذا في لحظة الهرب من الموت، هل تستحق الحياة كل هذه التضحيات؟

فرحت جدتي أيما فرحة حين سألت زوجة خالي عن الزائر وأخبرتها هذه الأخيرة أنها حبيبة قلبها «ياسمينة».

قبلت جبينها، ثم وجنتيها، ثم يديها، قبلت الوشم الأخضر عند معصمها، وأخبرتها أني اشتقت إليها.

وقبل أن أرتمي داخل حضنها بحثا عن ريح أمي، أمطرت عيني وقلت بصوت مختنق:

«جدتي، لقد تعبت»

قالت جدتي في هدوء وهي تمرر راحة يدها على ظهري: «ثقي بالله يا صغيرتي»

ولكي تعطي مصداقية وقوة لجملتها أضافت: سيدتنا «مريم»- عليها السلام- حين ضاق بها الحال طمأنها ربنا:

«فكُلي واشربي وقري عينا» *جزء من الآية 26 من سورة مريم

قري عينا يا كبدي فكل أمر سيمر.

كانـت تتحـدث ورائحـة النعنـاع الأخـضر تمـلأ الغرفـة، عطـر الطفولـة يطوقنـي، ذكريـات المـاضي تدثـرني، كل الأشـياء الجميلـة بـدت محيطـة وتدعـوني لأن أسـتمر وأقـاوم.

- هل استمر فصل الشتاء أكثر من الأشهر التي حددها الله له؟

- لا، أجبت مبتسمة.

- هل استطاع الليل أن يحجب النهار يوما؟

- لا! سـحبت رأسي مـن حضنهـا خصيصـا كي أنعـم برؤيـة الهـدوء في عينيهـا.

إذن كيـف لا تثقـين بـأن بعـد كل ليـل مهـما اشـتد سـواده نهـار مـشرق، وأن بعـد كل شـتاء قـارس يختبـئ ربيـع مرهـز ولا تسـتطيعين أن تؤمنـي بـأن بعـد عـسرك يـسر، وبعـد شـدتك فـرج ورخـاء مـن رب العالمـين.

أؤمـن، قلـت هـذا وأنـا أتنهـد وأنحنـي لأقبـل جبينهـا، أمسـكت يدهـا المنكمشـة بـين يـدي وقبلتهـا عـدة مـرات قبـل أن أسـتأذن بالانـصراف وأطلـب منهـا أن لا تنـسى ذكـري في دعائهـا.

قبـل أن أنـصرف أضافـت: يـا ابنتـي مهـما كان همـك كبـيرا، فتذكـري أن اللـه أكـبر.

خرجـت مـن عندهـا وكلماتهـا مسـتقرة عـلى الجـرح بالـذات، بلسـم سـحري بـدأ في إبـراز مفعولـه في رمشـة عـين، انتابنـي شـعور الأمـل الـذي انطلـق يزهـر ويتعاظـم داخـلي، شـعرت أن الحيـاة أبسـط مـن كل

التعقيـدات التـي أصر عـلى خنقهـا بهـا، وأن العـالم واسـع جـدا، وأن الغـد سـيكون أجمـل.

من أين تأتي جدتي بكل هذا القدر من الهدوء والسكينة؟

أي قبح كان سيعم العالم لو أنه خلا كليا من أشخاص مثل جدتي؟

قبـل عـودتي إلى البيـت خطـر لي أن لا أعـود كـما خرجـت منـه، اتصلت بهالـة صديقـة المـرضى، الكتـف الـذي يميـل عليـه الجميـع، سـألتها إن لم تنـه دوامهـا بعـد فسـأمر عليهـا لبضـع دقائـق فقـط.

رحبت بالفكرة وقالت أنها في انتظاري.

بادرتنـي بابتسـامة ونـبرة ترحيـب صادقتـين حـين أطللـت بـرأسي مـن البـاب، امـرأة في أواخـر الثلاثينيـات، تتحـدث بهـدوء، عيناهـا مـن فئـة العيـون التـي تغنَّـى بهـا الشـعراء والأدبـاء.

منـذ أيـام كنـت أجلـس قبالتهـا هنـا، حـين أتذكـر الموقـف يخيـل إلي أنهـا كانـت تناقـش تيسـا:

- احمدي الله أن زوجك يقف إلى جانبك. قالت يومها.

- لكن هذا واجبه.

- طيـب، تنهـدت، احمـدي اللـه أنـه يعـرف واجبـه وهـو يقـوم بـه عـلى أكمـل وجـه.

- هل من حق الرجل أن يتخلى عن زوجته، حين تتعب؟

- وماذا لو كان هذا التعب نتيجة مصارعة الموت!؟

- قالت: ليس من حقه طبعا، لكن هناك من يفعلها، يفعل ذلك وأكثر.

بالتأكيد لست في حاجة لأن أعدد لك عدد الذين تركوا زوجاتهم في منتصف الطريق، تكون المرأة في أمس الحاجة لعصا تتعكز عليها ولكن بمجرد أن تلقي بحملها عليها تهوي، تجعلها تتهشم وتتناثر فتات، ككأس زجاجية رمى بها أحدهم من الطابق العاشر.

في لحظات الضعف نشحذ كتفا نتكئ عليه، نتمنى أن يخبرنا أحدهم ولو كذبا أن كل شيء سيكون على ما يرام، حتى لو اضطر لإخفاء عينيه حتى لا نكتشف كذبه، أغلب النساء تهب قلبها بالكامل، تتعامل بالملكية، لا تصدق فكرة الإيجار، مستعدة لأن تقبل نتيجة: 1+1=10 لو كانت هذه النتيجة تريح نفسيتها.. حين يذهب المالك لا يترك وراءه سوى الخراب، يأخذ معه كل أثاث قلبها، الدفء، الأمل، والأهم من ذلك القوة والثقة في النفس ولا يترك لها سوى غرف مظلمة مليئة برائحة الذكريات والرطوبة، والكثير من التقرحات لو تركها في وضع مثل هذا الوضع.

شهدي واستغفري، حين رأتني ذهبت بأفكاري بعيدا، ثم غيرت من نبرتها المتأثرة إلى نبرة متفائلة وقالت:

هناك من تبرع بعدة أشكال وألوان من الشعر المستعار، الكثير من المريضات جربنه وهن راضيات جدا عن شكلهن بعد التغيير الذي أضفاه على وجوههنّ... هل أختار لون وطول الجرح الذي سأرتديه؟ وحتى أتجنب الدخول في جو درامي جديد خاصة بعد

الصـدق والتفـاني الـذي لمحتـه في عملهـا لم أشـأ أن أزعجهـا أكـثر، قلـت: سـأفكر.

ليـس هـذا فحسـب، قالـت وغمـزت بإحـدى عينيهـا الواسـعتين مشـيرة إلى عينـيّ: هـذا النـوع بالـذات مـن العيـون الـذي ابتلـع محـبرة الشـعراء وهـم يتغزلـون بـه...

عليـك الاهتـمام بمظهـرك أكـثر، مـن حـق زوجـك أن يـراك كما يشـتهي، لقـد قمـت بقلـب حياتـه رأسـا عـلى عقب.

حين كانت تتحدث كنت منشغلة في تفرس جمالها

مـن المؤكـد أن اللـه قـد قـضى وقتـا طويـلا في تجسـيدها قبـل أن ينتقـل إلى بقيـة خلقـه، قلـت هـذا في نفـسي قبـل أن أسـألها:

- حتى ولو كنت مجرد تمثال حجري؟

- حتى ولو كنت صنما! أجابت حاسمة خرابي

يومهـا لم أقتنـع بفكـرة اسـتبدال شـعري بشـعر مسـتعار، لا أدري لم قلـت وقتهـا سـأفكر، أكان يتطلـب الأمـر جبـلا مـن الشـجاعة؟

اليوم ابتسمت لها وقلت: جاءك الصنم. أريد شعرا مستعارا.

الحمد لله أنك اقتنعت بكلامي أخيرا، قالت مغتبطة.

تزحزحـت مـن كرسـيها واتجهـت صـوب خزانـة مجـاورة لنافـذة المكتـب، وقفـت برهـة تقلـب في أدراجهـا، سـحبت كيسـا منهـا وعـادت محملـة بـه إلى مكانهـا.

- افتحي الكيس واختاري واحدا.

مددت يدي بهدوء إلى الكيس، أخرجت منه عدة أشكال وألوان، أسود، بني، قرميدي، طويل، قصير ومتوسط الطول، إنها المرة الأولى التي تمسك يدي بشعر مستعار، بدا الأمر مرعبا للوهلة الأولى، لكنني انكفأت أحاول اختيار ما يناسب شكل وجهي، كانت تقدّم مساعدتها علي بكل صبر، قالت بما أن لون وجهي أبيض فإن أي نموذج أختاره سيكون مناسبا، تذكرت أن وجهي فعلا قبل أن يتقشر وتتنصل منه شعرات الحاجبين والرموش، وقبل أن يصفر كان أبيضَ ناصعا، كان زوجي في بداية زواجنا ينادني «بياض الثلج»، ثم مع الوقت لم يعد ير لا البياض ولا الثلج.

- سآخذ هذا، اخترت شعرا بلون التوت، كأنني أردت إعادة إخراج بياض الثلج التي كنتها ولو زيفا.

- هو لك، سيعود شعرك عما قريب لا تقلقي.

على إثر كلامها وقبل أن تضيف كلمة سابقتها لإزاحة الغطاء عن رأسي وابتسمت بفرح طفولي: انظري، خفضت رأسي كي ترى جيدا وأضفت: لقد قرر أخيرا العودة، هل ترين؟

أخفيت الباروكة داخل حقيبة يدي، آملة من أعماق قلبي أن تشغل الفراغ المريع الذي خلفه اختفاء برنس جمالي.

ليلا أمام مرآة طاولة الزينة نزعت قطعة القماش من فوق رأسي، وقفت أواجه رأسي والإبر البارزة منه، أردت التفكير قليلا في

صاحبة العلكة تساءلت: هل يمكنني أن أبدو أجمل منها؟ لكن المزاج كان رائقا بعض الشيء لتجاهلها، أخرجت الباروكة من حقيبة يدي تأملتها وأنا أفكر في الشخص الذي كان مصدر هذا الشعر، في الوبر، في الألياف الاصطناعية التي ستجمل هذا المسخ، عدلتها على رأسي، وضعت بعض المساحيق على وجهي كي أخفي ملامح المسخ، قربت قلم الكحل من عيني وقمت بعد عدة محاولات بإبراز وجودهما المتلاشي، أعدت رسم حاجبي، وأهديت الحياة لشفتي عن طريق قلم حمرة فاقع.

تجردت من ثيابي، وقفت وجها لوجه، ندا لند مع عريي، عدلت قطعة السليكون التي اقتنيتها في طريقي من الصيدلية، أخفيت قلبي المعرى، وارتديت ما أشعرني أنني أنثى، ما جعل زوجي حين ظهرت أمامه ينظر إليّ نظرة رجل لامرأة، أخيرا رأيت نظرة إنسان لمسخ تختفي.

تمَّت

ميلة/ الجزائر

أفريل *2020*

شكر وامتنان لِـ:

الدكتـور صـلاح الديـن بلفقـير، مسـؤول مصلحـة طـب الأورام السرطانيـة بالمؤسسـة العموميـة الاستشـفائية الإخـوة مغـلاوي بولايـة ميلـة، عـلى المعلومـات الطبيـة القيمـة التـي قدمهـا لي ككاتبـة، وعـلى جهـوده الجبـارة التـي يبذلهـا يوميـا مـع مرضـاه.

الجميلتين: هدى زعيوط وسهيلة بنفس المؤسسة السالفة الذكر.

والزهرتـين اللتـين أعادتـا بلـورة نفسـيهما وفـاح عطرهـما في النهايـة بقـوة: سـميرة وسـهام.

وللمحبـين الـذي بذلـوا مـن جهدهـم ووقتهـم في قـراءة مسـودة العمـل، لـكي يظهـر في النهايـة بالشـكل الـذي بـين يديـك عزيـزي القـارئ.

للتواصل مع الكاتبة:

Gmail : ilhemmezioud1@gmail.com

يمكنكم طلب جميع كتبنا من خلال موقعنا الالكتروني:
www.dammahpub.com